

إبراهيم حسن

عليشي

في خمسة أجيال

رواية

لوحة الغلاف والتصميم للؤلف
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الاهداء

إلى

النبراس ..

اليراع ..

البيرق ..

ثلاثة دواوين

ثلاث روايات

ثلاث لوحات

تاريخ عمري بمنتهى الدقة

بعد ليلة عاصفة , لم تبق ورقة على غصن ,
واقْتُلعت الأشجار الضعيفة , ومدّ النهر الذي يمر
من خاصرة شاطئ الزهور , أصابع زِراعِيّه وصلت
حتى أبواب البيوت القريبة من ضفافه .
فُبيل الفجر هدأت ثورة الطبيعة , وكنّ هدير البحر
وسكنت أنفاسه . استيقظت خزنا قبل أن يفتح الفجر
نوافذه , وشرعت تجهز العجين للخبز , ثم خرجت
لتهيئ أحطاب التنور , كان العتم مازال لا يدع
الإنسان يميّز الأشياء , عند باب التنور وقفت
محدقة تحاول رؤية الأشياء المكومة فوق مصطبته
.. تلة كبيرة من الخروق تلتف من اليسار إلى

اليمين حول فوهته , زمت عينيها محدقة مدققة ..
أيقنت أنهم بشراً . خزنا التي لا تهاب حتى الضباع
, أحست بشيء من الرهبة من هذا المنظر ,
تراجعت بهدوء وهي تهلوس

(يا لطيف يا ساتر .. من هؤلاء ؟ ! كيف بقوا
على قيد الحياة ؟ من أين أتوا ؟! هل هم موتى ؟!
لآ .. لآ .. أمس حُمي التنور ومازال الجمر فيه ..
يا رب عفوك ولطفك)

-: اسماعيل .. اسماعيل .. اسماعيل .. التنور ..
فوق مصطبته تلة من البشر نيام أو موتى
رد عليها وهو يحاول إشعال حطب الموقدة
= : ماذا تقولين ؟! من هم .. غريب ؟!

نهض وخرج وتبعته خزنا , وقف وتأمل هذه الهضبة

التي تحتل مصطبة التنور , استبان من جهة اليسار
زورقان يشبهان القدمين , اقترب ولمسهما .. كانا
كالصخرة الباردة

= : صباح الخير .. يا أخ .. يا أخ ... صباح
الخير ..

كرر نداءه , وهو يلكز هاتين الصخرتين , بدأ شيء
ما يتحرك من جهة اليمن .. وبمنتهى الهدوء أخذت
الهضبة تنهض لتصير تلاً فوق المصطبة اليسرى ,
ورمى الصخرة الأولى ثم الثانية .. لامستا الأرض
عندما استوى جالساً .. رجل كالجبل يرتدي حطة
بنية اللون تطوق رأساً كحبة القرع , ومعطفاً زيتياً ,
ظهر تحته قمبازٌ بنيٌّ مخططٌ بخطوط سوداء ,
وسروالٌ بنيٌّ , ثم وقف منتصباً كشجرة دلب

+ : صباح النور ..

للوهلة الأولى اعتقد اسماعيل كما زوجته أن هذه

التلة أكثر من شخص

= : من أنت ؟

+ : أنا عليشي

= : من أين وكيف أتيت في هذا الجو العاصف ؟

ولماذا نمت هنا ؟ ولم تدق علينا الباب ؟

+ : أتيت من دنيا الله الواسعة .. كان الوقت متأخراً

وأكره إزعاج الناس

= : تفضل .. تفضل ..

غادر اسماعيل وتبعه عليشي , وخلفهما خزنا

تراقبهما والدهشة تأخذ لبها (ما هذا الرجل ! ؟ ومن

هو !؟ كيف ولدته أمه وكيف حبلت به !؟)

وسرحت بخيالها تملأ وتكبّ كؤوس حيرتها ودهشتها
وأسئلة لا تنتهي (لو قطعوه لصنعوا منه عشرة
رجالٍ بحجم اسماعيل) همّ اسماعيل أن يقول له
اخلع حذاءك وتفضل ولكنه تذكر أنه لم ير في
قدميه نعلًا , تدارك ذلك وهو ينظر إلى قدميه
: تفضل .. تفضل .. وراح يكمل إشعال النار .
حفرة دائرية في وسط (السباط) يشعلون فيها
الحطب وحوله تفرش الحصر المصنوعة من أوراق
" الزل " نبتة ضفاف الأنهار . تربع عليشي بكامله
قرب الموقدة وراح اسماعيل يصاب العيدان
ويحشوها بقطع " الشوشاف " النبات الناعم سريع
الاشتعال
= : ضعي لنا الطعام .. أكيد هذا الخير جائع

- : حاضر

وضعت (النقي) - قطعة الحديد الدائرية المثبتة

على ثلاث أرجل - فوق الموقدة ووضعت فوقها

طنجرة النحاس ؛ لتسخن شوربة العدس . دُهشت

خزنا عندما أنهى عليشي طعامه .. سكب له

اسماعيل صحن شوربة ووضع بجانبه ميزر الخبز

.. تناول رغيفاً وغمس من الصحن حتى أنهى

الرغيف والصحن ونفض يديه

+ : الحمد لله على نعمه .. الله يبارك بكم ويزادكم

ويديم عليكم نعمه

= : اكمل .. ما بك ؟ .. لم تأكل شيئاً

+ : كفاها الله .. شبعت .. الحمد لله

كانت خزنا تراقبه .. توقعت أن يأكل كل ما في

الطنجرة وما في ميزر الخبز (كل هذا الجبل يأكل
رغيفاً من الخبز وصحناً من الشورية؟!!! واسماعيل
.. الذي يمكن .. يمكن , أن يكون بحجم فخذة ..
يأكل ثلاث أرغفة وصحنين) كانت خزنا تراقبه
وهي تخرج وتدخل كالمكوك , وضعت طبق القش
وتربعت لتقرّص العجين وراحت تسترق النظر إلى
وجه عليشي الطفح وحاجبيه الكثين كجناحي
عصفور , وعينيه الغائرتين , و أنفه الكبير كنصف
كوساية , وشفتيه المكتظتين المقلوبتين , احتار
اسماعيل كيف يفتح حواراً مع ضيفه من خلاله
يتعرف عليه , فسأله

= : إلى أين طريقك أخي علي ؟

+ : يا سيدي .. أنا عليشي ولست علي .. ولا

أعرف إلى أين أنا ذاهب ولا من أين أتيت .. أنا
عبدٌ .. لا أرض لي ولا سماء
= : أهلاً وسهلاً بك أعتبر البيت بيتك , أنا أعتذر
منك أخي عlishي لم أرد ازعاجك على الإطلاق ,
أنا أخوك اسماعيل .. اعتبرني كذلك , وأنا
سأعتبرك أخي

حبست الأمطار المصحوبة بالريعود والرياح والتي لم
تنقطع طوال النهار لحظة واحدة عlishي في بيت
أبو أحمد

اسماعيل , وفي اليوم التالي رفض اسماعيل السماح
لعlishي بالمغادرة

= : أين ستذهب في هذه الأيام العصيبة , هذا
العززال لك وإن لم تعجبك كونها مع (الطرش) تمام

هنا قربنا , أنت واحد من البيت . لم يستطع
اسماعيل تفسير وده تجاه هذا الرجل , ربما
لإحساسه إنه مقطوع من شجرة .. ربما إباء نفسه
وعفتها وبصره المغضوض دائماً , و صمته الدائم
= : يا أم أحمد هذا الرجل ربما وليّ من أو لياء الله
الصالحين .. ألا ترين طعامه وشرابه , أي طفل
يأكل أكثر منه , حتى الأولاد أحبوه ولم يشعروا
بالغربة تجاهه , لا يلتصقون بأقربائنا كما يلونون به
, كأنهم يعرفونه منذ ولدوا , إن استطعت لن أدعه
يغادر هذا البيت ما حييت .

ذهبت العاصفة بعد خمسة أيامٍ بلياليها , وهمّ
عليشي بالمغادرة لكنه رضح بعد إلحاح اسماعيل
ورجائه له بالبقاء , وربما لسبب آخر . صار

عليشي رفيق اسماعيل في كل شيء , في الحقول
وفي البيت , وفي كل عمل يقوم به , صار كظله ,
وغدا رفيق درب خزنا واسماعيل في قطع الحطب
ونقله , فكان يحمل عن خزنا حملة الحطب حتى
يقتربا من الضيعة فتجبره على إنزالها وتحملها , كي
لا يراه الناس , ويرافقهما إلى النهر لجلب الماء ..
في إحدى المرات زحط الحمار فوق هو وراوي
الماء الذي فوق ظهره , ناول خزنا تتكة الماء -
التي كان يحملها عنها دائماً من النهر حتى أعلى
التلة - وحملهما معاً ومشى بهما في تلك الطريق
الشديدة الانحدار حتى اجتاز العثرة ووضعهما وكأنه
لا يفعل شيئاً , خزنا يومها وقفت مشدوهة وراحت
تصلي وتدعو وتمتم وتنده (يا خضر .. يا خضر

(اسماعيل لم يبدِ أي دهشة , صار إيمانه راسخ
بهذا الرجل على أنه وليّ من أولياء الله , ولكنه كان
يغضب عندما يضع حملة خزنا تحت أبطه , أو
عندما يحمل تنكة الماء

= : يا أخي اتركها .. لماذا تحمل عنها ؟

: يا أبو أحمد .. هذه أختي .. أنا مرتاح

بمساعدها , ما رأيك أن ترتاح ؟

انتشرت أخبار عليشي في كل الضيعة , وحاول
الكثيرون جذبته إليهم واستغلاله , ولكنهم لم يفلحوا ,
كأنه خلق في بيت اسماعيل وكأنه خلق من رحم أم
خزنا وصار بالنسبة لها أقرب من أخوتها وأخواتها ,
واسماعيل أحس أنه توعمه وغدا الأقرب والأحب
لقلبه , حتى الأولاد ومون

حوله وأحياناً يغفون على ركبته .. عليشي - بعشرة
رجال وأكثر كما تصفه خزنا - وبعشرة قلوب أيضاً
. لم يستطع أحد في شاطئ الزهور معرفة أي شيء
عن هذا الرجل , فالجواب الدائم - (.. من أرض
الله الواسعة)

وباقى الأجوبة أغلبها (لا أعرف) يمشي دائماً
حافياً , فأى حذاء لدى اسماعيل لا يدخل برؤوس
أصابعه , في أول الربيع جاء " مويشي " الحذاء
إلى الضيعة وكالعادة نزل عند بيت المختار , أخذ
اسماعيل معه عليشي وذهب إليه ورافقتهم خزنا في
طريقها إلى نرجس الخياطة

= : صباح الخير يا أبا خالد .. الحمد لله على
السلامة

" : أهلا يا أبا أحمد - ردّ عليه وهو يميل برأسه
حتى يتمكن من رؤية رأس عليشي - اهلاً .. أهلاً
= : أبا خالد هذه للإصلاح - وناولته كيساً مليئاً
بالأحذية - وأريدك أن تصنع لأخي عليشي حذاءً
- : يا أبا خالد حذاء وشاروخاً - قالت خزنا
أخذ الكيس وفرده على الأرض , وتأمل عليشي مرة
أخرى , تناول من خلفه لوح الكوشوك ورماه على
الأرض وقال
" : ادعس هنا يا أخ عليشي
نظر عليشي إلى اسماعيل وخزنا
+ : لا أريد شيئاً
= : ضع رجلك وإلا أزعل منك ..
" : ضع رجلك .. أستم أخوة ؟ قال له " مويشي

الخذاء "

وضع عليشي قدمه وعلم " مويشي "

" : ما شاء الله .. يا أبو أحمد (الكوشوك) يكفي

لأربع (صرامي .. صرماية الأخ عليشي بأربعة)

وهذا (الكوشوك) لا ينفع لهذين القدمين , سأصنعها

له من كوشوك آخر متين , تكفيه العمر كله ,

وسأخذ الدبل فقط .. ما رأيك ؟

= : افعل ما تشاء

- : و (الشاروخ) .. وسأتي لك بعشر بيضات

هدية - قالت خزنا

" : تكرمي يا أم أحمد .. تكرمي , وسأصنع له

(شاروخاً) من نفس (الكوشوك)

عاد اسماعيل وعليشي إلى البيت وتابعت خزنا إلى

بيت الشيخ منصور وهي تحمل قطع القماش التي
أتى بها أبي أحمد من المدينة لهما وللأولاد ولعليشي
" زريقي " لسروالين وقميصين و " شامي " (لقنبازين
) كان همّ خزنا أن يكون لدى عليشي سروالاً آخراً
وقميصاً ؛ لتستطيع غسل ملابسه التي كانت تعتقد
أن لونها بني ، وتبين لها إنها في الأصل بيضاء ،
ولم تستطع غسلها ، فعليشي سيبقى عارياً حتى
تجف ، فليس لديها ما يرتديه ، آخر مرة حاولت هي
واسماعيل أن يُلبسها قميصاً من ثياب اسماعيل
- : يا أبا أحمد .. عليشي يجب أن يتحمم ونغسل
ثيابه ، صار لونها بنياً من الانتساخ .. ألم تر
حطاطته ؟ كنتُ أعتقد أنها بنية ، وعندما غسلتها
اكتشفت أنها بيضاء .. حاول معه كي يقبل أن

يلبس أحد قمصانك ويلبس فوقه (الكبوت) حتى
تجف ثيابه , لا يجوز أن يتحمم ويرتدي ثيابه
المتسخة , كأنه لم يفعل شيئاً .

رضخ عليشي لتوسل اسماعيل وحاول أن يرتدي
أحد قمصانه وساعده اسماعيل ولكنهما لم يستطيعا
إدخاله أبعد من الكوع , وهذه كانت السبب بذهاب
اسماعيل إلى المدينة وشراء هذه الأقمشة ديناً حتى
الموسم , ففي العادة في آخر الموسم يذهب أهل
الضيع إلى المدينة ويشترون حاجاتهم عن عام
كامل .. هذه المرة الأولى التي يستدين فيها
اسماعيل , ذهب إلى " اسكيف " وهو تاجر
الأقمشة وسأله

= : يا أبو جورج لديّ ظرفٌ طارئٌ أريد " زريقي "

و"شامي" لسروال وقميص و(قمباز) ، وفي الموسم
أعطيك ثمنها

< : يا أبو أحمد خذ ما تشاء لك وللأولاد ولكل
العائلة ، وادفع متى شئت هذا المحل على حسابك
عندما وصلت خزنا كانت نرجس وحيدة تقص
فستاناً

- : الله يعطيك العافية يا ست نرجس .. الله يرحم
روح أمك ، ويقدر روح أبوك وينولنا شفاعته .. يا
رب

* : الله يرحم أمواتك يا أم أحمد .. أهلاً وسهلاً ..
تفضلي .. تفضلي

نرجس ابنة الشيخ منصور .. الذي يجزم أهل
شاطئ الزهور والضيع المجاورة على علمه وفقهه

وكرمه وزهده وكراماته , يقسم أغلبهم أنهم ما يزالون
يروون كتلاً من النور تنزل فوق قبره , منذ انتقلت
روحه إلى جوار ربها , قبل ثلاث سنوات , عن
عمر يقولون أنه تجاوز التسعين عاماً قضاها
مصلحاً ومعلماً , فكل من يستطيع فك الحرف
ويجمع رقماً .. فبفضل الشيخ منصور , فهو أستاذ
ومؤدب ومعلم شاطئ الزهور وأغلب أهل المنطقة ,
ونرجس ابنته التي بقيت من عقبه وزوجته فاطمة
ابنة عمه الفاضلة , التي توفيت بعده بعشرة أيام ,
السيدة فاطمة أنجبت للشيخ عشرة أولادٍ ذكورٍ
وابنتين , ماتوا كلهم وهم أطفالاً , لم يبق إلا نرجس
.. فتاة ذات وجه جميلٍ وقور , وقوام كشجرة حور
فارعة , وخلقٍ وأدبٍ رفيع , هي الوحيدة في كل

المنطقة تجيد القراءة والكتابة , ويقال إنها تقول
الشعر , وكان والدها يستتجد بذاكرتها إن غاب عنه
اسم أديب أو شاعر .. نرجس مضربٌ مثلٍ في كل
شيء , يُرَجِّحُ بعضهم عدم زواجها لهذا الحسن ,
وهذا الخلق , وهذا التفوق , ولهذا لم يتجرأ أحد على
الاقتراب منها , وبعضهم الآخر يُرجعه إلى وضعها
, فنرجس مرضت كأخوتها في طفولتها , ونتيجة
خطأ في إعطائها إبرة , ضُرب عصب في رجلها
اليمين , جعلها لا تستطيع المشي إلا إذا مسكت
بكلتا يديها ركبتيها , تعلمت الخياطة وأبدعت فيها ,
فهي من تفصل جهاز عرائس بنات شاطئ الزهور
والكثير من الضيع المجاورة .

- : يا ست نرجس هذه القطع للأولاد , وهذه لي ..

وهذه لأبي أحمد وعليشي , مقاسات الأولاد وأنا وأبا
أحمد تعرفينها , وعليشي - ووقفت هنيهة - والله
عليشي يا شيختنا يجب أن يكون مقاسه أربعة
أضعاف اسماعيل

ضحكت نرجس حتى علا صوت ضحكتها وهي
نادراً جداً ما يُسمع لها صوت

*: إلهي يسعدك يا أم أحمد .. كل المقاسات

السابقة صارت غير صحيحة , الأولاد كبروا وأنت
وأبو أحمد يمكن تغير مقاسكما من سنة للآن , وأما
عليشي .. أربعة أضعاف أبي أحمد؟! هكذا أعتقد
كثيراً يا أم أحمد .. الآن آخذ مقاسك وغداً يمرّون
كلهم دقيقتين ويذهبون أو ترسلين الأولاد أولاً .. ثم
يأتي أبا أحمد وعليشي , بالمناسبة من هذا الرجل يا

أم أحمد؟ كل الضيعة تتحدث عنه ، يتحدثون عنه
كمن يتحدث عن وهم ، وأخبروني أنهم دائماً يجدونه
جالساً قرب ضريح والدي

- : لا أدري إن كنا نستطيع اقناعه بالمجيء ..
صحيح هو كعشرة رجال ولكنه كالطفل يخجل من
خياله ، أبا أحمد حاول أن يأخذه معه إلى المدينة ؛
ليراه بائع القماش ليستطيع تقدير حاجته فلم يقبل ،
فأتى له من الزريقي والشامي أربعة أضعاف ما أتى
به لنفسه

ضحكت نرجس مرة أخرى

* : الآن أنتم أتيتم له بأربعة أضعاف أبي أحمد !؟

: تماماً .. أبو أحمد قال لأبي جورج اسكيف

اعطني لرجل يفصل أربعة رجال مثلي ، قال له

كيف يا أبا اسماعيل يفصل أربعة رجالٍ مثلك , قال
له .. يعني بحجم أربعة رجالٍ مثلي
ضحكت حتى دمعت عيناها

وقالت : إن رفض .. قولي له ابنة الشيخ منصور
تريدك أن تذهب إليها فهي تحتاجك لشيء ما ,
وعندها سيأتي .. من أين هذا الرجل يا أم أحمد ؟
- : يا ست نرجس .. لديه جواب واحد لم يغيره ..
أنا عليشي .. من دنيا الله الواسعة .. صامت لا
يتكلم إلا إذا سحبت منه الكلام سحباً .. حاول أبو
أحمد أن يناديه بـ علي .. رفض .. قال له (ما
حدا علي إلا علي والباقي علوش وعليشي) سأله
عن أهله عن بلده .. قال له (أنا عليشي من بلاد
الله الواسعة .. ألا يكفي؟) وعاهد نفسه ألا يسأله

مرة ثانية .. أبو أحمد يقول (هذا وليّ من أولياء الله
ولا يجوز إزعاجه أو إغضابه) عندما وجده أول مرة
قرب ضريح والدك , سأله إن كان يعرفه .. قال له
(لم نلتق ولكنني أعرفه) الأولاد يحبونه أكثر من
أعمامهم وأخوالهم لو ترينهم عند المساء , يتكومون
حوله , ويغفون على ركبتيه .. أول مرة نهرتهم ..
قال لي (إن نهرتهم مرة ثانية لن تري وجهي) ومن
يومها لم أتجرأ لا أنا ولا أبا أحمد على نهركم , كل
هذا الجبل يأكل في الوقعة رغيفَ خبزٍ , في اليوم
ثلاثة أرغفة يعني مثل ابني الصغير
كانت تستمع نرجس كما لم يحدث من قبل , فهي
تكره ثرثرة النساء , وهن لا يتجرأن على ذلك في
حضرتها , بالرغم من لطفها وأدبها ولباقتها ,

لنرجس هيبة ووقار تجعل النساء والرجال كالمقيدين
بسلاسل أمامها , ولكن هذه المرة , كلما سكتت
تسألها وتتصنع الانشغال بشيء ما , شغلها هذا
الرجل , أخذ كل تفكيرها .. مرّ على بيت الشيخ
منصور رجال كثيرون ولكن لم يمرّ رجل بهذه
المواصفات وهذا الغموض , من يكون هذا الرجل ؟
* : يا أم أحمد غداً تفضلي أنت والأولاد وأبو أحمد
والسيد عليشي

- : لي عندك طلب يا ست نرجس

* : تفضلي يا أم أحمد

- : اريدك أن تقصي وتخيطي لهذا الرجل أولاً وأن
تبدّيه على الجميع , لأنني أريد أن أغسل له ثيابه ,
وليس لدينا شيئاً يلبسه , ولا أريد أن أطلب أمامه ..

يخجل ، وأخاف أن يزعل

*: أل هذه الدرجة تحترمين هذا الرجل يا ست أم

أحمد ؟

- : يا ست نرجس عندما ترينه ، ستقولين أن أم
أحمد على حق .. يا ست نرجس من يوم أتى لم
تلتق عيني بعينه ، نظره دائماً في الأرض أو للبعيد
.. يذهب معنا إلى التحطيب يقطع ويحمل الحمار
ويضع حملتي تحت إبطه حتى قبيل الضيعة فأرجوه
أن يتركها فيضعها كي لا يراه أحد وهو يحمل
الحطب .. يذهب معنا إلى النبع يملأ الراوي ويحمل
التكة حتى نطل على البيوت فأرجوه أن يتركها لي
.. من فترة وقع الحمار والراوي فوق ظهره ، حمل
الحمار والراوي حتى تجاوزنا الصخرة الكبيرة ،

وأوقفه كأنه يحمل بيديه كيساً من القش .. يا ست
نرجس .. عليشي رجل بعشرة رجال , وفي صدره
قلب أحن من قلب الأم

* : الله يديم عليكم وعليه الصحة والعافية ويكثر
من أمثاله

نرجس التي تجاوزت الثلاثين , وعلى امتداد هذا
العمر لم يُشغل ذهنها رجل أبداً , لم تفكر حتى
بينها وبين نفسها برجل , ترسخ في ذهنها باكراً أنها
امرأة خُلقت لتتهم بأمها وأبيها ولم تُخلق لتكون زوجة
وأماً , كل الرجال الذين كانوا يأتون لبيت الشيخ
منصور , لم يحرك أحد منهم فيها غريزة الأنثى ,
ورجل لم تره قط , ومن حديث خزنا البسيطة الطيبة
, زُرِع هذا الإنسان في عقلها وفي كل جوارحها ..

خزنا جعلت نرجس تحلم .. رشت ماءً بارداً فوق
جوارحها فأيقظتها وأطلقت عصفير أنوثتها من
سباتها وجعلتها تحلق . لم تقصّ أو تخيِّط , أحست
أنها غير قادرة على فعل أي شيء , فُبيل الغروب
جاءت سكينه وجورية , حاولت أن تستمع لثرثرتهن
رأينها شاردة دائماً

> : أنت اليوم مشغولة البال يا ست نرجس

* : ربما من التعب يا سيدة جوريه

أطول ليل مر في حياة نرجس , فكرة تأخذها
وأخرى تجيبها , لا مسار ولا طريق تأخذها إليها
أفكارها , تداخلت .. بل تداخلت وتشابكت كخيوط
العنكبوت, فُبيل الفجر سلمت عينيها للنعاس
استيقظت على دق سكينه التي تأتي باكراً إلى بيت

الشيخ منصور , تقضي يومها بين نرجس وأمها
وأبيها العجوزين , تدبر شؤون بيت نرجس , ونرجس
تفتح لها يدها كأنها أختها من أمها وأبيها , ودائماً
تجد نرجس مستيقظة , إلا اليوم .. وجدت الباب
مازال مغلقاً وعلى المصطبة يجلس رجل كبير في
العمر يرتدي ثياباً نظيفة أنيقة وطربوشاً أحمر
وحطة بيضاء حول عنقه وبيده عكاز , جازمت أنه
رجل دين من أصدقاء الشيخ منصور
++: الله يصبك بالخير يا عم
<<: الله يسعد صباحك يا ابنتي
اقتربت منه وقبلت يده وهي تقول
++: من عادة الست نرجس أن تكون مستيقظة في
هذا الوقت

وراحت تدق الباب

*: أهلاً سكينه .. صباح الخير .. كأنني اليوم لم

أستيقظ باكراً

++: ست نرجس لديكم ضيف .. كأنه شيخ ..

يجلس على المصطبة

*: يا أخت سكينه جهزي الطعام

أسرعت نرجس في تهيئة نفسها وخرجت

*: أهلاً وسهلاً .. الله يصبحك بالخير يا شيخ

حسن , وانحنت وقبلت يده .. من زمان لم نرك ..

أهلاً وسهلاً

<<: والله أنا مقصر تجاهك يا ابنتي .. قدس الله

روح أبيك وجمعني به في الآخرة ورحم الله روح أمك

الطاهرة

* : الله يرحم أمواتك يا سيدي ويرزقنا رضاك

وبركتك .. أهلاً وسهلاً شرفتم بيت أخيكم

<<: يا ابنتي أنا مررت أطمئن عليك

* : الله يطمئن قلبك .. الحمد لله .. أنا بخير ..

الله سبحانه وتعالى يغمرنى برزقه والحمد والشكر له

أخرج محرمة من جيبه وقدمها لنرجس

<<: يا ابنتي أنا أعترف لك أنني مقصر وأرجو أن

تسامحيني

حارت دمة في عيني نرجس

* : يا شيخ حسن .. أنت عم .. وأرجو أن

تسامحني أنت .. أنا شغلي ممتاز والطيبون لا

يتركونني أبداً ولا حاجة لي أبداً للمال .. اعتبرني

أخذتها , وانفقها بمعرفتك لمستحقيها عن روح الشيخ

منصور

حاول الشيخ جاهداً أن تأخذ المحرمة , ولكنها لم

تقبل

<<: اسمحي لي يا أبنتي

*: سكينه تجهز الطعام لن تغادر قبل أن تأكل ..

الشيخ منصور يزعل إن غادرت بدون طعام .. وأنا

أحتاجك قليلاً يا سيدي .. كأن الله أرسلك اليوم إلي

<<: قدس الله روحه الطاهرة وأنا لا قدرة لدي على

زعله .. ما الأمر يا ابنتي ؟

*: هو ليس ذو أهمية .. من زمان لم أر حلماً ..

اليوم رأيت نفسي في برية وكنت أمشي .. وبدون

عرج , كانت رجلي طبيعية , وكنت أمشي بدون أن

أسندها بيدي , وصرت أتفقدتها وأتحسسها لأتأكد

أنها سُفيت ، وصلت إلى نهر ، وأنا أحاول عبوره
جرفني و كدت أغرق .. رأيت غيمة بيضاء أغلقت
النهر أمامي ، خرجت منها حمامتان مسكت كل
حمامة بذراع ، وطارتا بي ، ونحن نرتفع في الفضاء
رأيت الغيمة تذوب في الماء رويداً رويداً
<< : اللهم اجعله خيراً يا ابنتي .. متى رأيت هذا
الحلم ؟

* : الآن .. أيقظتني منه سكينه وهي تدق الباب
<< : هذه الأيام الرؤيا تصح والعلم عند الله ..
رؤياك تفسيرها صعب يا ابنتي ، ولكنني كما أرى
أنك ستعبرين إلى أيام جميلة وطيبة ولكن الحمامتين
اللتين طارتا بك ، والغيمة التي ذابت ، لا علم لي
بتفسيرها .. الحلم جميل ويدعو للبهجة والتفاؤل

لم يكمل كلامه حتى أتت سكينه ومعها طبق القش

*: تفضل يا شيخ حسن

<<: بارك الله بتعبك يا ابنة الأصل الطاهر

أكل قليلاً جداً ووقف وهو يقول

<<: الحمد لله .. أدام الله عليك نعمه وتوجك

بالصحة والعافية ورحم الله والديك .. والآن اسمحي

لي يا ابنتي

اقتربت منه وقبلت يده وهي تضع فيها محرمة ,

فيها مبلغ من المال , حاول إعادتها

<<: يا ابنتي أنت لم تقبلي مني شيئاً , يا ابنتي

نحن من يجب أن يقدم , وهذا حقك علينا , فأبوك

قدس الله روحه متفضل علينا جميعاً , وفي كل

شيء

*: يا شيخ حسن .. هذه صدقة عن روح والدي
ووالدتي , اعطها لمستحقيها بمعرفتك
: بارك الله بك أيتها الطاهرة النقية انحنى على
رأسها وقبله وغادر وهو يبتهل ويدعو
لم يكذب يغيب الشيخ حسن حتى أطلّ اسماعيل
وعائلته ومعهم عليشي وقفت نرجس وسكينة
لاستقبالهم

*: أهلاً وسهلاً .. أهلاً وسهلاً
سلم اسماعيل وخزنا ثم الأولاد وآخرهم كان الجبل
العالي .. عليشي , نظرت كمن ينظر إلى السماء
لترى آخره , نرجس كانت تعتقد أنها من النساء
الطويلات الممشوقات , وجهها كان بموازاة خصره
تماماً , مدّت يدها نحو يده الممدودة , أحست أن

كفها يشبه عصفوراً صغيراً يقف فوق جذع سنديانة
معمره , نظرت صوب وجهه ؛ لتقرأ شيئاً فيه ,
وجدته ينظر إلى الأرض ورموشه الطويلة , وحاجباه
الكثان تغطيان عينيه تماماً , وبانت لها كأنهما شبه
مغمضتين , ولحيته وشاربه , يغطيان أغلب وجهه ,
فلم تصل إلى شيء , الكتاب مغلق وبلا عنوان
* : أنت عليشي

- وبصوت هامس -

+ : نعم يا سيّدي

* : تفضلوا .. تفضلوا

نرجس ورثت أباها وأمها , في ملاقة الضيف , لا
فرق بين الأمير والفقير كان يقول لها (يا ابنتي
الضيف .. ضيف الله .. واحترامه واجب ..

والواجب فرض وبنفس القدر , أما قدر الناس
وقيمتهم فشيء آخر (رحبت بهم جداً وكالعادة ,
ولكن هذه المرة كانت أكثر حميمية وأكثر شوقاً ربما
اب باب M - اب عليئي - كان السبب . دخلوا .. كان عليشي
آخرهم , وقفت تراقب , ملأ الباب تماماً وأحنى

لباب M, السبب الأول

- يا ست نرجس والله العظيم أكلنا وجئنا إليك
كما وعدتك

تابع اسماعيل

=: الله يرحم روح أمك ويقدر روح أبيك .. الله
يعمر هذا البيت .. بيت العلم و الشرف والكرم
والجود , ويديم عليك الصحة والعافية ويفرحنا فيك
يا ست الستات

انتبهت نرجس , أول مرة تسمع هذا الدعاء - الله
يفرحنا فيك - ربما قيل لها كثيراً ولكنها أحست أنها
أول مرة في حياتها تسمعه

*: الله يديم عليك الصحة والعافية و(يخيلك) أم
أحمد .. هذه الطاهرة الشريفة , ويفرحك بالأولاد
كانت تحاول سرقة ما استطاعت .. النظر من

عليشي , الذي جلس كالقلعة , آخذاً أكثر من
نصف (الدشك) تحتضن يده اليمنى يده اليسرى
أسفل بطنه .. حانياً رأسه قليلاً ونظره في الأرض ,
وأبو أحمد قربه كالطفل .. تذكرت نرجس قول خزنا
- عليشي بعشرة رجال -

*: يا أبو أحمد الطعام محطوط , إن لم يكن من
أجلكم من أجل الأولاد
= : الله يديم عليك نعمه يا ابنة الأصول والكرم ..
أكلنا وأتينا

- : يا ست نرجس ليتك تأخذين مقاس الأولاد
لنرسلهم إلى البيت
*: تكرمي يا أم أحمد .. حالاً .. يا أخت سكينه
تكرمي واسكبي الشاي

سجلت مقاسات الأولاد ودخلت وجاءت بكيس
صغير من الورق وأخذت توزع سكاكر (الكرميلا)
على الأولاد وهم يغادرون

*: تقضلي يا أم أحمد

أخذت قياسات أم أحمد واتجهت نحو اسماعيل
*: تفضل يا أبو أحمد .. ممكن تخلع (الكبوت)

انتهت من اسماعيل واتجهت نحو عليشي وهي
تنحني وتحتضن بكلتا يديها رجلها عند الركبة

*: تفضل يا سيد عليشي .. (ياريت تشلح الكبوت

كمان) .. يا أخت سكينه تكرمي .. أريد الكرسي
وابقي جانبي ومعك الدفتر والقلم

وقف عليشي وخلع الكبوت وعيناه لا تفارقان

الأرض , وضعت الكرسي أمامه واستندت على

كتف سكينه ووقفت عليها .. صار رأسها بمحاذاة
صدره نظرت صوب عينيه .. رأتهما .. لم يغلقهما
هذه المرة .. لونهما بني .. تأملتهما قليلاً ثم
انحدرت إلى وجهه , ثم مسكت خيط القنب وقالت
لسكينه

*: أخت سكينه ضعي طرف الخيط فوق الكاحل
بمقدار كفك .. (ايه .. هيك .. تمام)
وشدت الخيط إلى الكتف ومسكته
*: اتركه يا سكينه

وقاست على ذراعها .. واحد , اثنان , ثلاثة ونصف
.. وسجلت على الدفتر , ثم استندت على كتف
سكينه ونزلت

*: سكينه ضعي الخيط على الكاحل تماماً

وشدت إلى الخصر ومسكت وقاست ذراعاً ونصفاً
تقريباً ، وسجلت على الدفتر ، ثم قاست الخصر
وقالت

*: تقضل اجلس

جلس عليشي .. صار وجهها وهو جالس بموازاة
وجهه ، مسكت طرف الخيط ووضعتة على كتفه
اليمين وشدته إلى كتف اليسار ، في هذه اللحظة
ضبطته ونفسها .. يسترقان كل منهما النظر إلى
الآخر

*: يا أبا أحمد قياساتك تقريبا نفس القديم ولا حاجة
للتجريب أما السيد عليشي - واتجهت نحوه - بعد
غد مرّ حتى نجرب .. يجب أن نجرب
ودعتهم وهي تهمس لخرنا

*: بعد غد .. نكّريه ليمرّ ؛ لنجرب .. كي أفي

بوعدى لك

-: سأفعل .. أخبرت اسماعيل أنني رجوتك أن

تقصي وتخيطي لعليشي أولاً .. الله يبارك فيك يا

ست نرجس

*: مع السلامة .. مع السلامة

من هذا الرجل ؟ من أي كون جاء ؟ لماذا شغلني ؟

وهل أنا مهياة لمثل هذا ؟ أنا تجاوزت الخامسة

والثلاثين .. هل يجوز أن يقال عن ابنة الشيخ

منصور جُنّت ؟ هل يجوز أن تمس قداسة هذا

الولي كرمى لنزوة ؟ لماذا أحاسب نفسي عن شيء

لم أفعله ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا شيخ

منصور أنا أثق أنك دائماً معي , لا تفارقني ..

ارشدني .. دلني .. لم أحسّ بحاجتي إليك كما الآن

.. أيها القديس عنني على الدرب الصحيح .. أنا

كنت ابنتك ورفيقة دربك ورفيقة روحك

++: ما بك يا ست نرجس ؟ أين سرحت ؟ لماذا

تبكين ؟ فطرتِ قلبي

*: لا شيء يا سكينه .. تذكرت أبي وأمي .. غمّة

ومرت

باشرت بقص زريقي السروال والقميص

*: اخت سكينه أريد منك خدمة

: أنت تأمرين يا ست نرجس

: لا يأمر عليك ظالم .. أريدك أن تمرري على أبي

هيثم , هو يذهب دائماً إلى المدينة أريد منه أن

يأتي لي ببعض الأغراض , بلغيه سلامي وقولي له

أن يمرّ بنا في وقت فراغه

: الآن ؟

: متى شئت

: طيب .. الآن أطلّ على أمي وأبي وأذهب من

هناك وإن لم أجدّه أضع له خبراً عند أم هيثم

: بارك الله بك يا سكينه أنت أختي التي لم تتجبها

أمي, لا أعرف لولاك ماذا كنت أفعل !؟

: أنت متفضلة علينا جميعاً يا ست نرجس .. لو لم

أكن موجودة , ثقي أن الله سيرزقك أفضل مني

بألف مرة أنت طاهرة وابنة أطهار

غادرت سكينه , وقت قصير جداً مرّ , وإذ بصوت

أبي هيثم أمام الباب

: يا ست نرجس .. الله يعطيك العافية

: تفضل يا أبا هيثم تفضل

: الله يعطيك العافية .. الحقيقة كنت قادم إليك وفي

الطريق رأيت سكينة وقالت أنها كانت ستذهب إليّ

لأنك تريدني .. فأنا ذاهب في الفجر إلى المدينة

أم هيثم حوشت كمية من القريصة والدردار

والحميضة والهندباء , وسأذهب بها إلى المدينة

فقلت لها سأذهب إلى الست نرجس وأسألها إن

كانت تريد شيئاً من المدينة وأرسلت لك (شوية

خبيزة وشوية حليب ولبن)

: الله يبارك بكم يا أبا هيثم ويديم عليكم الصحة

والعافية ويفتح أمامكم أبواب الخير

: سترك الله يا ست نرجس وان شاء الله نفرح لأجلك

.. الله يرحم روح أمك الطاهرة ويقدر روح أبيك

: الله يرحم أمواتك ويحرسك ويصونك ويديم عليك
الصحة والعافية .. يا أبا هيثم أريدك أن تمرّ إلى
دكان اسكيف أبو جورج - و قصّت قطعة من
الزريقي وقطعة من الشامي - وتأتي لي بثمانية
أذرع من الزريقي وثمانية أذرع من الشامي ولكن
ليس من هذا .. قل له نرجس ابنة الشيخ منصور
تسلم عليك وتريد زريقي أفضل من هذا .. أفضل ما
عندك .. وشامي - هذا جيد - ولكن الخطوط لون
آخر - وناولته درهمين - وإن بقي شيء قل له أن
يسجله وفي المرة القادمة أرسل له الباقي
: إن بقي شيئاً أنا أدفع له وأخذ منك عندما أعود
: بارك الله فيك

وهي تقف لتودعه وضعت في جيبه بعض النقود

أخرجها بسرعة ووضعتها فوق ماكينة الخياطة وهو

يقول

: يا ست نرجس نحن مقصرون معك , والله العظيم

أزعل .. يا ست نرجس نحن نريد دعاؤك .. دعاؤك

فقط .. الله يرزقنا بدعاء الطاهرين

قبيل الغروب كانت نرجس هيأت (القنباز)

والسروال لعليشي بالإبرة والخيط للتجريب قبل الدرز

على الماكينة

: الله يمسيك بالخير يا ست نرجس

: الله يسعد مساك .. أهلاً أبا هيثم .. الحمد لله على

السلامة

: الله يسلمك .. يا ست نرجس هذي هي الأقمشة ,

يسلم عليك أبو جورج ويقول لك أرسل زريقي من

أفخر الأنواع وكذلك الشامي , ان شاء الله تعجبك ..

وهذا الباقي

فرشت القماش وهي تقول

: الله يديم عليك الصحة والعافية يا أبا هيثم تفضلت

.. ما بقي للأولاد

: الفضل لله يا ست نرجس , لن آخذ شيئاً ..

فضلك سابق

: هي ليست لك .. هي للأولاد

يا ليته يأتي غداً وحده , أريد أن أتكلم معه , أريد

أن أفهم منه شيئاً عنه , هل سيتكلم .. هل سيبوح

لي , نامت نرجس على وسادة من الأسئلة عن

عليشي , حاولت أن تغفو , هذا الرجل لم يدعها ..

كلما سهت تأتي تلك الغيمة البيضاء .. هي نفسها

.. التي خرجت منها الحمامتان , ولكن هذه المرة
رأت وجه عليشي في تلك الغيمة , مبتسماً وديعاً
صامتاً , كصبح شاطئ الزهور .
مع شروق الشمس صحت من غفوتها الأخيرة ,
غادرت فراشها محاولة الاستيقاظ من حلمها الجميل
, الذي حوله خوفها عليه , خوفها من المجهول إلى
كابوس يؤرقها . فُبيل الساعة الثالثة صار عندها
شبه يقين أن عليشي لن يمرّ هذا اليوم , لم تكذ
سكينة تتجاوز الزاروب لتطلّ على أمها وأبيها ,
حتى ظهرت خزنا وعليشي انتظرتهما وعادت
معهما , عندما رأتهم نادت
: يا سكينة .. اذهبي لا ضرورة لوجودك الآن ,
فأمك وأبوك ربما يكونان بحاجة لك الآن .. أهلاً

وسهلاً سيد عليشي .. أهلاً وسهلاً أم أحمد
: الله يبارك فيك ويعمر هذا البيت يارب .. ويفرحنا
فيك يا ست نرجس .. تأخرنا .. نعتذر منك , أبو
أحمد سبقنا مع الأولاد إلى البيت
: أهلاً وسهلاً .. تفضلاً , الله يبارك بتعبكم , كنتم
في الأرض أليس كذلك ؟
: نعم كنا في الأرض
: نشرب الشاي ونجرب بعدها
: والله لا داعي نجرب ونروح لنرتاح , بارك الله بك
, نحن من أهل البيت ياست نرجس
: ما دمت من أهل البيت , أنا سأقيس السيد عليشي
وأنت تغلي الشاي , نشربه وتغادران
: حاضر .. سأفعل

قطعت نرجس صمت وهدوء عليشي , حين طلبت
منه

: اعمل معروف اشلاح (الكبوت) وارتي القميص
نظرت إليه

: تمام .. اشلحه وارتي (القمباز) لو سمحت
كان ينفذ صامتا ونظره في الأرض , وهي تقيه
بنظرها .. من رأسه الضخم , والذي ظهر جيداً بعد
أن اضطر لشلح الحطة عنه , وبان شعره القصير
الأسود الذي بدأ يغزوه الشيب , وظهر جبينه
العريض , وعيناه اللتان يلتصق حاجباه ورموشه
بهما , وأنفه الكبير وشفته المكنظتان المقلوبتان ,
إلى قدميه الكبيرتين الحافيتين , كانت خزنا صامته
تأمل ما تفعله نرجس بمنتهى الود والاحترام , بعد

أن أشعلت النار تحت ابريق الشاي
: أم أحمد ألم يأت (مويشي) إلى الضيعة هذا العام
؟

: بلى .. هو عند بيت المختر
صمتت نرجس , ولكن خزنا فهمت وبسرعة وقررت
أن تخبر نرجس وفي الوقت المناسب
: أم أحمد يزعجكم إن طلبت من السيد عليشي شيئاً
, كونكم صرتم أهله وناسه ؟

قالت ذلك ونظرت صوب وجه عليشي لتحاول قراءة
ردة فعله على السؤال , التقت عيناها بعينيه اللتين
ازدادتا اتساعاً وامتلتا بالعتب

: يا ست نرجس .. وأنت أيضاً أهلنا .. وأنت الأعز
, وأجزم أنك أهل لكل شاطئ الزهور , وأخي عليشي

سيّد الرجال وبمليون رجل ، وهو من يقرر أي شيء
يخصه ، أما من ناحيتنا أنت طلباتك أوامر
: أنا أسفة ، ربما أخطأت التعبير ، أنا أعرف أن
السيّد عليشي سيّد الرجال وأميرهم ، أنا استأذنكم في
الكلام معه كونه أخاً لك ولأبي أحمد .. يا سيّد
عليشي طلبي إن كنت تستطيع الاعتناء بأرزاق
الشيخ منصور ، أقصد أن تعتبرها لك ، تعطيني
منها حصة وتتصرف بالباقي ، فأكثرها صار بوراً
ولا نستفيد منه شيئاً ، والزيتون موسمه بسيط جداً
لقلة الاعتناء

: أنا حاضر .. أنا بخدمة الشيخ منصور حتى
أموت ، من يدلني عليها ؟
: يا ست نرجس ها قد وافق أخي عليشي ما رأيك

أن تتكلما بكل شيء وتأذني لي بالذهاب لقد تأخرت
، سأتي بالشاي وأغادر

: ونعم الأخ يا أم أحمد الله يبارك بك وبه ، تشرابين
الشاي أولاً وتغادرين

سكت عليشي وأعاد بصره إلى الأرض .. كانت
عصافير السعادة تطير من عيني نرجس رفوفاً رفوفاً
، وقفت خزنا بعد أن شربت كأسها بسرعة ،
ونهدت نرجس لتودعها

: لا داعي يا ست نرجس أرجوك أن تبقي فأنا لست
غريبة

: من أجل واجبك وأريدك قليلاً

على بعد عدة خطوات وقفنا

: وبصوت هامس .. يا ست نرجس أنا أعرف ما

هو طلبك .. أمس أوصينا مويشي الحداء أن يصنع
له (صرماية وشاروخ)

: أنت نبيهة يا أم أحمد , أنت أخت عزيزة وغالية ,

فعلا هذا ما أريده , يا أم أحمد عندما تمرين من

جنب بيت المختار .. اليوم غداً على راحتك ,

أوصيه بواحدة ثانية وأنا سأدفع الثمن ولكن دعيها

بيني وبينك فقط يا أم أحمد .. فقط يا أم أحمد

: تكرمي يا ست نرجس .. بيني وبينك .. ولن

يسمع بذلك مخلوق , بارك الله بك يا ابنة الكرام

عادت نرجس وجلست مقابل عليشي على المصطبة

: يا سيد عليشي أرجو أن تسامحني لأنني ربما

أخطأت بحقك بطلبي من أم أحمد , أنا قصدت

الاستئذان منهم لأتكلم معك , لأنك تعيش معهم

وتحبهم ويحبونك جداً ، وهم من أشرف وأطيب
الناس

: أنت لم تفعلي شيئاً يستوجب الاعتذار و

المسامحة .. أنت تأمرين لا تطلبين

: بارك الله بك وأدام عليك الصحة والعافية .. يا

سيد عليشي متى تشاء أذهب معك وأدلك على

الأرض ، وأعتقد أن أبا أحمد يعرفها جيداً

: ألن يغضب أقبائوك ؟

: هنا لا أقباء لي من لحم ودم .. لدي عمٌ واحد ..

الشيخ حبيب ، في الكروم .. تعرفها ؟

: أعرفها وأعرفه .. جليل القدر ، عالي الكرامة

: أنت تعرف كل شيء .. من أين أنت يا سيد

عليشي ؟ أعتقد أنك مللت من هذا السؤال !

: لا .. لم أملّ .. من دنيا الله الواسعة

: لماذا لا تجب على هكذا أسئلة ؟ أنا أعتذر سلفاً

: لا تعتذري .. أبداً .. الكرام الصادقون لا يفعلون

ما يعتذرون عنه .. أنا لا أجيب على من أنت ومن

أين ؟ لأن الأمر لا يقدم ولا يؤخر في الموضوع

شيئاً , أستطيع أن أسرد نسبي إلى عدة أجيال

وأنتسب إلى عدة أماكن ويمكن أن أكون صادقاً

وممكن أن أكون كاذباً

: لا أعتقد أنك تكذب

: ولو كنت صادقاً لا يغير في الأمر شيئاً فأبو لهب

كان عم الرسول وكان أخاً لأبي طالب ولعبد الله ..

وأولاد الشيخ حبيب .. أولاد عمك .. لا يشبهون

أباهم ولا يشبهون عمهم .. أصل الإنسان فعله يا

ست نرجس وليس نسبه وانتسابه

: صدقت .. صدقت

: أنا أعتقد أنك أقرب إلى روح وقلب الشيخ حبيب

من أبنائه , لذلك سألتك , ربما يغضبون

: من أنت أيها الجبل العالي؟! تعرفنا جيداً , ربما

أكثر مما نعرف أنفسنا .. مادام الشيخ حبيب حياً لا

خوفَ منهم ولا من غيرهم .. وهم بعيدون .. وأعتقد

أنهم نسوا أن لهم ابنة عم وحيدة .. هم في

الأصل لم يدخلوا هذا البيت إلا قليلاً .. وقليلاً جداً

, فأنا لم أعد أذكر أشكالهم

: اعتبريني عصا الشيخ منصور .. توكلني عليها

جيداً

: دامت لك الصحة والعافية يا خير من يعرف

الشيخ منصور - قالت ذلك وهي تسند رجلها لتقف

: أنا ذاهب .. سأسأل أبو أحمد عن الأرض إن

كان يعرفها وإن خفي عنه شيء نسأل غيره فكل

أهل شاطئ الزهور يحبونك ويحترمونك ويقدمون

أباك وأمك

: لن تذهب الآن ستأكل وبعدها افعل ما تشاء

: لن تتغلبني .. وبيت أبو أحمد ينتظرونني ..

والطعام ليس عندي ذا أهمية

: أعرف .. أعرف .. ولكن لن تذهب .. تأكل أولاً

لم ينتظر طويلاً حتى سمع صوتها

: تفضل .. تفضل

قام ودخل وحمل طبق القش وخرج به إلى المصطبة

وانتظرها

: تفضل

وبمنتهى الهدوء أكلا .. اشتهد أن ينظر إليها ولو
مرة واحدة , ولكنه لم يفعل , وكالعادة أكل رغيفاً
من الخبز وقليلاً من البرغل واللبن وحمد الله ووقف
.. فاجأته عندما مدّت يدها مودعة وهي تقول

: أحب جداً أن تمر .. وبدون سبب .. لا تدعني
أطلب من أي أحد رؤيتك

مدّ يده ونظر إليها وقال وهو يغادر

: سأفعل .. لن أدعك تقولين أو تسألين ماذا

تريدين .. لا لي ولا لغيري .. هذا وعد وعهد , يا

ابنة الشيخ منصور

صار مرور عيشي إلى بيت نرجس فرضاً كصلاته

, دلّه اسماعيل على كل قطع الأرض فهو يعرفها

كما يعرف أرضه , فاسماعيل كان أحد المقربين
الموثوقين عند الشيخ , بعد عدة شهور عادت أرض
الشيخ منصور أفضل أراضي شاطئ الزهور ,
عليشي مع اسماعيل أينما حلّ , يساعده في كل
عمل يقوم به , واسماعيل يذهب معه إلى أرض
الشيخ منصور , أهل شاطئ الزهور صاروا يقولون
ذهب اسماعيل وأخوته وجاء اسماعيل وأخوته ,
كناية عن عليشي . وعرف عليشي أن نرجس هي
من أتت بـ (القنباذ) والسروالين والقميصين الجديدين
بالإضافة لِمَا أتى به اسماعيل وعرف أنها من
أوصت ودفعت ثمن (الصرماية الثانية
(التي فصلها مويشي الحذاء . عادت الحياة لأرض
الشيخ منصور واخضر كل شيء .

عليشي كل يوم يسأل الشيخ منصور وهو يصلي
عند قبره، إن كان يقبل أن يكون بيتاً وملاًداً لـنرجس
، يحميها ويصونها .. كل يوم يبتهل أن يأتيه في
الحلم ويقول له رأيه ؛ ليشجعه ويتجرأ ويطلب يدها
.. كل يوم يسأل نفسه عند رأس الشيخ منصور (يا
شيخ منصور هل هو تجرؤ مني عليكم .. هل
أصلح لمقامكم .. دلني يا سيدي .. دلني ..
نرجس وحيدة .. منذ جئت وأنا أحرس هذا البيت ..
أمرّ في الليالي .. أدور حوله .. يا سيدي قليلون
الذين يمرّون .. نرجس وحيدة .. وحيدة جداً .. يا
سيّدي بجاهك عند مولاك .. الهمني إلى الصواب)
: يا أخت سكينه أسمع جلجلة وخبباً .. استطلعي
الأمر

: أهلاً يا سيدي

وعادت مسرعة

: عمك الشيخ حبيب يا ست نرجس

أسرعت نرجس ماسكة رجلها لملاقاة عمها الذي

تحبه وتقده كأبيها , نزل عن فرسه , وأسرعت

سكينة إليه قبلت يده وأخذت الفرس لترابطها

: أهلاً وسهلاً .. وهي تمسك يده بكلتا يديها وتقبلها

رفعها وضمها إلى صدره وهو يقبل رأسها

: أهلاً يا بنيتي الغالية .. الله يكللك بثوب السترة

والعفة والطهارة يا ابنة أظهر من رأيت عيني

وسمعت أذني

: ان شاء الله أنتم بألف خير .. اشتقت إليك جداً يا

عمي

: يعلم الله كم أنا مشاق لرؤيتك والاطمئنان عليك يا

ابنتي, ولكن صحتي لم تعد تسعفني , وأنا وأبوك

قدس الله روحه لم ننجب غيرك يا نرجس

: البركة بأولادك يا عمي الله يحميهم ويهديهم بنور

علمك ويوفقهم بدعائك ورضاك

: اخبريني عنك عن أحوالك وعن أيامك .. عندما

أسعفتني صحتي قليلاً جئت إليك لأطمئن عليك ..

يا ابنتي العمر له حقه

: الله يعطيك الصحة والعافية والقوة .. والله لو كنت

- ووقفت هنية - لو كنت أستطيع ؛ لذهبت إليك

: والله أعرف .. هذا واجبنا نحن يا ابنتي ولكن

صحتي لم تعد تسعفني يا ابنتي

: الأمور جيدة يا عم , بفضل دعائك .. الله

يغرقني بنعيمه ولا ينقصني إلا دعاؤكم ورضاكم

الدائم , فهو ينير لي الدرب

: إلهي ينور دربك ويجملك بالستر ويفتح لك أبواب

الخير من كل حدبٍ وصوب , ويرزقك بابن الحلال

الذي يملأ دنياك فرحاً وبهجة وسروراً

: الحمد لله .. الحمد لله .. عمي .. نفى إلى

الضيعة شخص درويش , غريب , طيب , الحقيقة

صفاته كلها غريبة أخبرني الناس أنه يقضي أوقات

فراغه قرب ضريح الشيخ منصور , جاء مع أبي

أحمد وزوجته وأولاده ؛ لخياطة ثياب لهم وله ,

فطابت منه أن يعتني بأرزاق الشيخ منصور , هل

أخطأت قبل أن أسألك ؟

: لا يا ابنتي لم تخطئي , هذا رزقك وحدك وأنا

سأكتب ذلك أصولاً

: الشرع يقول بأحقيتك يا عمي , وفي كل الأحوال

هو سيعود لأولاد عمي

: الشرع قال كلمته , وأنا سأقول كلمتي .. إن شاء

الله يأتي ابن الحلال وتورثي رزقك لأولادك .. يا

ابنتي ما أعطاني إياه الشرع , سأبيعه لك بموجب

سند بيع قطعي , وبشهود , إن تزوجت - وأنا أبتهل

لله أن يرزقك ابن حلال - أكون قد أبرأت ذمتي

أمام الله وأمام أخي وإن لم تتزوجي - وأنا أثق أن

الله سيرسل لك من يستأهل عفتك وطهارتك -

فبعدك .. إن لم تكن لأولادك أو لمن تحبين

وترضين ؛ فلتذهب إلى البحر فأولاد عمك لا

يستأهلون شيئاً , يا ابنتي هذا الرجل - عليشي -

أنا سمعت عنه كثيراً ، وتمنيت رؤيته
:عمي هذا الرجل كالجبل الشامخ ، ولكن في داخله
طفل .. يخجل كالأطفال لا يمكن أن يرفع بصره
عن الأرض ، لا يتكلم إلا إذا سألته ، ويجب
باختصار شديد ، بالرغم من ضخامته ، يأكل في
الوقعة رغيفاً من الخبز مع القليل من الآدام ، يمرّ
في الصباح إن كان ذاهباً للعمل في أرض الشيخ
منصور وعند الغروب يمرّ ؛ ليسألني إن كنت أريد
شيئاً ، ويغادر إلى بيت أبي أحمد ، كلما عرضت
عليه المال يرفع نظره للبعيد ويقول (ما حاجتي
للمال يا ابنة الشيخ منصور) حتى من غلة الموسم
رفض أن يأخذ درهماً واحداً ، عندما سألوه إن كان
يعرف الشيخ منصور - الذي يزور ضريحه كل يوم

- أجاب (لم ألتقه ولكني أعرفه) حين طلبت منه أن يعتني بأرزاق الشيخ منصور سألني (ربما يغضب أقرباؤك) قلت له .. لي عمٌ واحد الشيخ حبيب وهو في ضيعة أخرى أجنبي (لم ألتقه ولكني أعرفه وأعرف أولاده فهم لا يشبهون أباهم وعمهم ولذلك سألتك)

: صدق الرجل يا ابنتي , وأنا أتيت كي أكتب لك حصتي بيعاً , مررت قبل أن أصل إليك على بيت المختار وأخبرته أن يأتي بشاهدين ويتبعني وهما يتحدثان أطلّ المختار عيسى عبدالله ومعه عبدالكريم الشايب وحسان خضر وأحمد مصطفى رحب بهم الشيخ حبيب و نرجس وبعد أن اطمأن عن أحوالهم وعيالهم

: أهلاً وسهلاً بكم شرفتم بيت الشيخ منصور ..
بيت نرجس ابنتنا جميعاً , يا إخوان الأعمار بيد الله
, وأنا طلبتكم وتكرمتم بالحضور ؛ لتشهدوا على ما
سأقوله وأكتبه أمامكم , يا إخوان أنا بعت حصتي
من ميراث أخي الشيخ منصور ؛ لابنة أخي نرجس
, بيعاً قطعياً لا رجعة فيه , وقبضت ثمنه منها كما
اتفقنا , وسأقرأ لكم ما كتبت بخط يدي وأرجو أن
تبصموا شهوداً على ذلك

قال المختار : على الرأس والعين يا شيخ .. الله
يديمك ويديم عليك الصحة والعافية ويرزقنا رزاق
ودعاك

قرأ لهم وبصموا وناول السند لنرجس

: تفضلي يا ابنتي .. هذا رزقك تصرفي به كما

تشائين وتحبين

عند الغروب جاء عليشي كالعادة ليسأل نرجس إن

كانت تريد شيئاً ويشرح لها ماذا عمل اليوم

: الله يسعد مساك يا عليشي ويقويك ويديم عليك

الصحة والعافية .. لك عندي سلام وتمني

: على رسول الله السلام .. عليك السلام

: عمي الشيخ حبيب كان اليوم عندنا وحكيت له

عنك .. قال إنه سمع عنك ويتمنى رؤيتك والتعرف

عليك وطلب مني أن أبلغك عندما تتمكن أن تشرفه

بزيارة

: ماذا حكيت له عني ؟

: حكيت ما أعرفه و أحبه فيك

: وهل بي ما يُحب ؟

: يا عليشي .. الله لم يخلق فيك ما لا يحبه الناس ,
ولكثره ما أحب أن يجمعه فيك , جعل حجمك بعشرة
رجال كي تتسع للخصال , والحقيقة أنا أراك بمليون
رجل

زاد انحناء رأسه وهو يرد

: الحقيقة كنت سأستأذنك بزيارته

: وهل يلزم أذنًا مني ؛ لزيارة الشيخ حبيب ؟

: نعم يلزم - وصمت قليلاً - قطعت صمته

نرجس

: يا علوش قل ما تشاء .. ما تشاء أعاهدك لن

أغضب مهما كان

: كنت .. وصمت

: كنت ماذا ؟

: كنت أريد أن أسألك إن كنت تقبلين بهذا العبد
الفقير الغريب رقيقاً وزوجاً ؟ هذا ماكنت أود أن
أسألك عنه قبل زيارتي للشيخ .. ياست نرجس ..
اغفري لي إن كنت أخطأت وسامحيني واعتبري
نفسك لم تسمع شيئاً

: يا علوش .. أنت أغنى ما عرفت ورأيت .. وأنقى
وأطهر ما عرفت ورأيت .. أنت عندي بمليون رجل.
غادر وهو يحس أن الدنيا كلها صارت ضيقة عليه
.. نرجس بعثرته حتى ملأ الكون , عليشي الجبل
الصامت , هذا المساء أضاف إلى صمته صفة
جديدة , تكوم الأولاد حوله كالعادة , حاولت خزنا
معرفة المكان الذي ينظر إليه وأصابه تعبث
بمنتهى الهدوء والتأني بشعر الأولاد فيهاجمهم النوم

, فكلما غفا ولد أخذته خزنا إلى فراشه وحلّ محله

أخوه , همست خزنا في أذن اسماعيل

: هناك ما يشغل بال عليشي اليوم .. شارد الذهن

زائغ النظرات , أصابعه تعبت بمنتهى الحنية

برؤوس الأولاد حتى ناموا جميعاً

: على أساس عليشي لا يدخل لسانه إلى حلقه (

مو)

: لا.. أعرف أنه لا يتكلم أبداً ولكنه كان يشاركنا

الحديث بالنظر إلينا ونحن نتكلم

: اتركه بحاله

استيقظت خزنا لتحلب البقرات وتعجن , كل يوم تجد

عليشي يجلس على الجرن يسند ظهره على جذع

شجرة التوت .. اليوم لم تجده , ورأت باب البيت

الثاني مغلقاً , أحست بشيء من الخوف , وصارت
تكلم نفسها - أنا عرفت من الأمس أن به شيئاً ما
.. لم يكن طبيعياً - فتحت الباب ونظرت نحو

العرزال لم تر عليشي , عادت مسرعة

: اسماعيل .. يا اسماعيل

: ما بك .. ما الأمر ؟

: ألم أقل لك ؟ عليشي ليس موجوداً .. ألم أقل لك

به شيء ؟ لم تصدقني

خرج اسماعيل مسرعاً واتجه نحو العرزال , لم يجد
شيئاً

: صرة ثيابه .. هل هي موجودة ؟

: لحظة

دخلت مسرعة فتحت الصندوق , وعادت مسرعة

: هي في الصندوق

: سيعود .. سيعود

أمام قلق خزنا، أظهر اسماعيل - تصنعاً - عدم

الاكتراث، وثقته أن عليشي بخير

: كأن أحداً منا أغضب هذا الولي يا أبا أحمد

فرحل ؟ لا تخبر الأولاد

: لِمَ هذا القلق ؟ لعله ذهب إلى أرض الشيخ

منصور

: إن شاء الله

أخفى .. بل حاول اسماعيل عدم اظهار قلقه أمام

خزنا ، وهي قرأت ذلك جيداً ؛ لذلك غادرت وهي

تقول (إن شاء الله) جلس اسماعيل في مكانه

المعتاد وغرق في تساؤلاته فعليشي بالنسبة له

صار قطعة من روحه وجسده ورفيق دربه - لن
يغادر أنا أثق بذلك قبل أن يخبرني , لا يمكن ,
فنحن أهله ودنياه , إن لم يكن كرمى لي ولأخته أم
أحمد .. كرمى للأولاد , فهو يحبهم مثلنا وأكثر ..
لا يستطيع .. لا يقدر على زعلهم .. لا يقدر على

فراقهم - قام وهو ينادي

: أينك .. أينك ؟

: ما بك ؟ أنا هنا

: عlishي لا يمكن أن يغادر قبل أن يخبرنا , بل لا

يستطيع الرحيل

: ولماذا ؟

: إن كنت تستطيعين فراق الأولاد هو يستطيع .. يا

خرنا عlishي روحه متعلقة بالأولاد , أنا أعرف وأثق

بذلك , ليس من أجلي أنا وأنت .. من أجل الأولاد
.. هو في مكان ما ولن يتأخر
: إن شاء الله

قُبيل الظهر كان عليشي في أول الكروم , في أول
الضيعة وقف عند أول بيت
: الله يعطيكم العافية

: الله يعافيك .. أهلاً وسهلاً .. تفضل يا أخي

: الله يبارك فيكم .. بيت الشيخ حبيب أين لو

سمحت ؟

خرج الرجل إليه ووقف بجانبه وهو يشير بيده
: هناك .. البيت الذي بجانب شجرة الحور وأمامه

شجرة التوت

: عرفته .. شكراً تفضلت بارك الله فيك

: تفضّل ارتح قليلاً .. نقوم بواجبك

: بارك الله بك وزادك من نعمه

تحت شجرة التوت عند جذعها كان الشيخ حبيب
يجلس فوق (دشك) عندما اقترب عlishي .. رآه
الشيخ حبيب , عرفه - انه عlishي .. عليه ينطبق
الوصف - نزل عن (الدشك) وتناول عكازه ووقف
مرحباً

: أهلاً وسهلاً .. أهلاً وسهلاً

: السلام عليكم

مسك يده وانحنى ليقبلها , حاول الشيخ حبيب
سحبها لم يستطع , حاول أن يقبل يد عlishي

: استغفر الله يا سيدي

: لماذا يا أخي ؟ لسنا أفضل منك

: استغفر الله يا سيدي .. استغفر الله

أجلسه قربه مرحباً

: أنا عليشي

: عرفتك يا ولدي وأخي .. عرفتك أهلاً وسهلاً ,

باركت بيتنا بحضورك

: مبارك بوجودك يا سيدي

تحادثا همساً أكثر من ساعة وحيدين , عرف كل

منهما الآخر بدقة , ثم رفع عليشي صوته قليلاً ,

وصار مسموع

: يا سيدي .. أنا رجل كما تراني .. غريب , فقير ,

لا خلفي ولا أمامي , عابر طريق , طال مكوثي

هذه المرة في شاطئ الزهور , وجدت ابنة المقدس

الشيخ منصور هناك , كلفتني بالاعتناء بأرزاقه ,

وجدتها وحيدة , تجرأت وأتيت إليكم , طالباً يدها
: يا ولدي .. حقا أن تطلب , فأنت رجل .. ربما
أفضل منا جميعاً , امهلني أسأل نرجس , فما تقوله
نرجس , الشيخ حبيب يبصم عليه .. نرجس .. حبة
قلب الشيخ منصور و رفيقة عمره .. ابنة الفاضلة
فاطمة ورفيقة عمرها .. بينهما تربتٌ وشبتٌ ..
أخذت منهما كل ما يتمناه ويرجوه الأفاضل الكرام
: بارك الله بكم يا سيدي وأرجوكم الصفح والدعاء
: اللهم يجعل لكم في كل خطوة سلامة , ويفتح
عليكم أبواب الخير والعطاء ويسبل عليكم أثواب
الستر والعفو والمغفرة
: يا سيدي ها أنا أكلت وشربت وطلبت أتأذن لي
يا سيدي؟

: ما رأيك أن تبقى اليوم عندي أستأنس بك , وغداً
تذهب في الصباح الباكر

: يا سيدي ربما أنا أخطأت اليوم بحق أخي أبي
أحمد وأختي أم أحمد , صحت باكراً وغادرت ولم
أخبرهما , وأجزم أنهما قلقا علي ويعتقدان أنني
رحلت , والست نرجس , كل يوم في الصباح أذهب
إليها ؛ لأسألها ماذا تريدني أن أعمل .. يا سيدي
عشت كل عمري وأنا لا أدع نفسي تتعلق بشيء
من هذه الدنيا حتى وصلت إلى شاطئ الزهور ,
وفي ليلة عاصفة , قادني قدري إلى تنور صاحب
هذا البيت , النقي اسماعيل أبو أحمد وزوجته
الطاهرة أم أحمد , تمسكوا بي حتى تهدأ العاصفة ,
ثم أسروني بكل ما فيهم , أحببتهم وتعلقت بأولادهم

؛ و لظهرهم ونبلهم وكرم أخلاقهم , أخاف أن

يزعلوا مني

: يا ولدي وأخي .. وأنت طيب وطاهر ونقي ..

بأمان الله وحفظه وأنا قريب جداً أرد عليك

ودّعه وغادر

قُبيل الساعة العاشرة زاد قلق اسماعيل وخرنا على

غياب عlishي

: يا خزنا ما رأيك أن تذهبي إلى الست نرجس

وتسألها إن كان مرّ عlishي هذا الصباح

وكانها كانت تنتظر هذه الكلمة على جمر

: حالاً

: لا تتأخري

: لن أتأخر

عندما وصلت كان عند نرجس بعض النسوة وسكينة

: الله يعطيكم العافية

سلمت على الجميع وضغطت على يد نرجس وهي

تقول

: مررت من هنا فأحببت أنا أسلم وهمت بالمغادرة

: أهلاً وسهلاً يا أم أحمد الحقيقة جئت في وقتك ..

أريد منك خدمة

لحقت بها إلى الباب وهمست في أذنها

: ما الأمر يا أم أحمد

: استيقظنا ولم نجد عيشي .. هل مرّ هذا الصباح

؟

: لا .. لم يمرّ

: أبا أحمد قلق عليه .. وأنا - وغصت - أخاف

أن يكون تركنا ورحل

: لا يا أم أحمد عليشي لا يفعل ذلك , أقصد وارد
أن يرحل وفي أي وقت ولكن ليس قبل أن يودعكم
.. أنت لا تعرفين مدى تعلقه بكم وخاصة بالأولاد
: وهم متعلقون به جداً , منذ الصباح سألوا عنه
قلت لهم ربما في أرض الشيخ منصور .. يا رب ..
أهذا رأيك ؟

: نعم يا أم أحمد .. عليشي لن يغادر قبل أن
يودعنا

: سأطمئن أبا أحمد فهو يتصنع القوة وهو منذ
الصباح كمن يقعد على الجمر .. لم أكن أتوقع أن
أبو أحمد يكن لعليشي كل هذا الود .. كأنه فقد أحد
أولاده

أحست نرجس أن خزنا قلقة مثلها .. هذا الرجل ربط
عائلة اسماعيل ونرجس بحبله السري , ولم يعودوا
قادرين على فراقه . نرجس كانت شبه متيقنة أن
عليشي ذهب إلى عمها قبل أن تأتي خزنا كانت
السعادة تفرّ كالعصافير من كل مسام فيها , ولكن
كلمة خزنا (أخاف أن يكون تركنا ورحل) أقلقتها
.. لا أعتقد أن يفعلها .. أنا أثق بأنه أحبني كما
أحبته .. هذا الرجل الشريف الخلق الطاهر , لا
يمكن أن يرحل قبل أن يقول لي شيئاً .
مرّ الوقت بطيئاً جداً , فُبيل الغروب زغرد أولاد
اسماعيل وطاروا كرف دوري (عمو علوش .. اجا
عمو .. اجا عمو) ركضوا باتجاهه وتعلقوا به ,
قرفص وراح يقبلهم ويلفهم , لم ير الأطفال دموع

عليشي , بقي حتى تماالك نفسه , حمل منصور
وزينب وعلي على حضنه ومسك الباكون بقمبازه .
وقف اسماعيل وخزنا ينظران إليه بمنتهى الفرح
والسعادة والحزن

: الله يمسيكم بالخير

: سألا معاً وهما يردان التحية .. أين كنت .. وتابع

اسماعيل .. إياك أن تفعلها مرة ثانية .. إياك أن

تذهب إلى أي مكان قبل أن نخبرنا

: تكرم .. تكرم .. أنا أخطأت ومنكم السماح

: أين كنت ؟

: سأذهب لأخبر نرجس

سأل عليشي خزنا وهو ينظر إلى الأرض

: هل سألت عني ؟

: أنا ذهبت وسألتها إن كنت مررت , هي حاولت

أن تهون الأمر وقالت -علوش لا يفعل ذلك ..

مستحيل أن يرحل قبل أن يودعنا .. اطمئني سيعود

, ولكنني قرأت شيئاً ما في عينيها وأوصتني عندما

تعود أن أخبرها

: أنا أذهب إليها وأسألها إن كانت تريد شيئاً , وأعود

فوراً

: طيب .. رداً معاً

كانها كانت تنتظره , على حجر الجرن كانت جالسة

تسند ظهرها على جذع شجرة التوت

: الله يمسيك بالخير يا ست نرجس

: الله يسعد مساك

: كنت عند الشيخ حبيب

: خمّنت .. لأنني أثق .. أنك لن تذهب إلى أي

مكان في هذا الكون , قبل أن تخبرني

صمت برهة

: ثقتك في مكانها

: كيف حاله الشيخ حبيب

: هنيئاً لك بهذا الحب وهذا الاحترام وهذا التقدير

الذي يكفه لك هذا الطاهر .. يا ست نرجس ..

طلبت يدك منه .. هو لم يسألني إن كنت سألتك

وأنا لم أقل له

: هل لمست منه الرضى ؟

: أنا أعرف قبل أن أذهب أنه يحبني .. ولكنه بعد
أن تحدث عنك طويلاً , قال لي أنا أقف خلف رأي
نرجس ما تقوله أبصم عليه .. وقال .. لن أتأخر
عليكم

: هل تريدني مني شيئاً قبل أن أغادر
: إلهي يسعد قلبك وروحك يا علوش كما أسعدت
قلبي وروحي

نظر إليها لبرهة , وغادر كطفلٍ خَفَرَ من كلمة مديحٍ
قِيلت له

بعد يومين حضر الشيخ حبيب برفقة الشيخ حسن
رحبت بهما نرجس فرحة سعيدة , وبعد أن قدمت
لهما الطعام بدأ حديثه قائلاً

: يا ابنتي يا نرجس , أنا وأبوك كنا نعتبر الشيخ

حسن أختاً ثالثاً لنا ولذلك أنا اليوم سبب مجيئه إليك
، وسأتحدث أمامه معك .. منذ يومين جاءني
عليشي وطلب يدك مني فهل تقبلين به زوجاً ؟
صمتت قليلاً وملأت الدموع عينيها
: أنت ما رأيك يا عمّاه ؟

: يا ابنتي أنت ست الستات ، نسب ، ورزق ،
وجمال ، وأدب ، وشرف .. والناس بمعادنها .. يا
ابنتي .. بعض الناس مجرد رؤيتهم ذنب وشرك بالله
، وبعض الناس النظر إليهم عبادة ، وعشرتهم قرب
من الله ، أحسن أن هذا الرجل تقي ، نقي ، ولي من
أولياء الله ، هذا ما رأيته وقرأته به
: يا عم .. ليس لي في هذه الدنيا إلا أنت .. فأنت
أبي وأمي وصديقي وأخي .. و ما تقرره سأنفذه

بحذافيره

نادى : يا ابنتي يا سكينه ؟

: نعم يا سيدي

: تكررني عليّ واذهبي إلى بيت أبي أحمد اسماعيل

وقولي له أن يتفضل هو والأخ عليشي , أريدهما

في أمر

: تكرم يا عمي على رأسي

صار وجه نرجس الأبيض كالجمر , لا تدري تبكي

أم تضحك , لم تجد سكينه في بيت اسماعيل إلا

بعض الأولاد

: أين أبوكم وأمكم يا أولاد ؟

: في أرض الوطى

: يا ولدي , الشيخ حبيب يريد أباكم وعمكم عليشي

في أمرٍ ما ، هو في بيت الشيخ منصور ، أتذهب
عوضاً عني وتخبرهما ؟ أنت أسرع مني
: حالاً يا خالة .. حالاً

تركها وذهب راكضاً ، وعادت هي لتخبرهم ، لم
يطل الانتظار ، دخل اسماعيل وخلفه (اخوته
العشرة) كما يسمونهما أهل شاطئ الزهور وخلفهما
سكينة ، سلّما وجلسا

: أهلاً وسهلاً .. شرفتمونا

: بكم نتشرف يا سيّدي .. رد أبو أحمد

: كيف الأحوال يا أبا أحمد . كيف الأولاد والعائلة

؟

: الحمد لله يا سيّدي .. الله يغرّقنا بنعيمه

: الله يرزقكم ويمدكم بالصحة والعافية .. كنت دائماً

خير من يحفظ الود ، ونرجس خير شاهد

: هذا البيت متفضل علينا جميعاً ونرجس كذلك

متفضلة علينا جميعاً ومهما فعلنا لا نرد إلا القليل

من أفضالها

: بارك الله فيكم .. يا أخي أبا أحمد الأخ علوش

كان عندي من يومين لا أدري إن كان أخبرك

: لا والله لم يخبرني .. هو غاب عنا نصف يوم

وقلقنا عليه .. سألناه .. قال المهم أنني عدت

: يا أبا أحمد الجميع صاروا يعرفون علاقتكما , كل

الناس يعرفون أنك آخيته وأنا أهنئك من كل قلبي

على هذا الأخ, هذا الطاهر أينما يكن يحل الخير

والبركة

: يا سيدي الكلام في الوجه غير مستحب .. غيبة

أي ولد من أولادي لن تساوي عندي غيبته عني ,
والله يشهد على ما أقول .. يا سيّدي هل بدر مني
ما يغضبه ؟

: لا .. لا يا أبا أحمد .. الأخ علوش - نناديه هكذا
لأنه يرفض أن نناديه علي , وأنا أحببت ما تسميه
نرجس أكثر ؛ لذلك تبنيته الاسم بالأذن منه .. الأخ
علوش .. مرّ منذ يومين وطلب يد ابنتي نرجس
زوجة له , ووعدته أن أسألها وأقف خلف رأيها .. يا
أبا أحمد أنا توجهت بالحديث إليك كونك أخاه .. يا
أخ علوش .. يا أخ أبا أحمد أنا سألت نرجس
وأعطت موافقتها فألف مبروك وتفضلوا نقرأ الفاتحة
على نية التوفيق

عندما انتهوا من قراءة الفاتحة , قاما وسلّما على

الشيخ حبيب والشيخ حسن , وقامت سكينه والدموع

تملاً عينها , غمرت نرجس مباركة ومهله

: يشهد الله .. ملأت قلبي فرحاً وسروراً .. ألف

مبروك يا أخي الذي لم تلده أمي .. ألف مبروك يا

سيّدي وأختي وابنتي يا نرجس

: بارك الله فيك يا أخي أبا أحمد والآن تكرم علينا

بدعوة بعض الجيران ليشهدوا كذلك العقد , فهم أهلنا

: على رأسي يا سيّدي

غاب دقائق وعاد ومعه مصطفى العاقل وسعيد

ناصر سلماً وجلسا

: أهلاً وسهلاً أخي أبا صالح .. أخي أبا محمد ..

شرفتمونا .. أخوتي هذا الخير طلب يد ابنتي نرجس

زوجة له , وابنتي نرجس وافقت وأنا كذلك , تفضل

اكمل يا أخي يا شيخ حسن اعقد قرانهما على سنة
الله ورسوله

: يا ابنتي يا نرجس هل أنت موافقة على طلب

السيد عليشي زوجاً لك ؟

: نعم يا سيدي أنا موافقة

: يا ابنتي من توكلين عنك ؟

: عمي الشيخ حبيب

: تفضل يا أخ علوش ضع يدك في يد عمك الشيخ

حبيب

أنهى الشيخ حسن الاجراءات

: ان شاء الله ألف مبروك يا أخي علوش .. ألف

مبروك يا ابنتي يا نرجس , إن شاء الله بالرفاه

والبنين , ألف مبروك يا سيدي الشيخ حبيب ألف

مبروك أخي أبا أحمد .. يا ابنتي يا نرجس , هذا
اليوم ليس ككل الأيام .. إنني أحسّ بروح أبيك
ترفرف سعيدة فوقنا

بعد أن أنهى الشيخ حسن كل الاجراءات الشرعية ,
سأل الشيخ حبيب .. اسماعيل

: يا أخي أبا أحمد .. من لديه عجول حوليات في
شاطئ الزهور للبيع ؟

: يوجد عند أكثر من شخص

: بمعرفتك .. الأكثر حاجة ؟

: إبراهيم سليمان أبو خليل , رجل عياله كثير

وأغلبهم صغاراً وهو طيب جداً ولديه عجلين للبيع

: تتكرم علي وتبلغه أنني بحاجة

: على رأسي وعيني يا سيدي

لم يطل انتظار الشيخ حبيب ، فبيت إبراهيم قريب ،
دخل وسلم وجلس

: يا أخي أبا خليل أريد أن أستشيرك في أمر

: العفو يا سيّد .. تفضل يا سيّدي ، أنا رهن أمرك

: عندي أخ كأفضالك أخذت من عنده عجلاً حولياً

كان متعوب عليه ، وأريد أن أعطيه ثمنه وأخاف أن

أظلمه وأخي أبا أحمد قال لي أن لديك حوليين وأتى

من يشتريهما كم دفع لك وأنت كم طلبت ؛ لأتتور

: يا سيدي .. الحوليان اللذان عندي كويسين ، دفع

لي في الرأس نصف درهم وأنا أصريت على ثلاثة

أرباع

: بارك الله فيك نورتنني .. يا أبا خليل أنا بحاجة

لعجل ثاني ما رأيك أن تبيعني عجلاً منهما ؟

: يا سيّدي هما لك هدية

: طيب .. ضع يدك في يدي وعلى بركة الله

قام ووضع يده في يد الشيخ حبيب

: ما هذا يا سيدي ؟

: اتفقنا على بركة الله .. هذا درهم ثمن أحد

العجلين تذهب أنت والأخ أبا أحمد ومن تختار من

أهلنا في شاطئ الزهور وتذبحونه وتوزعونه في

حب الله واحتفالاً بعقد قران ابنتي نرجس على هذا

الطاهر علوش

تمسك أبو خليل بيد الشيخ وقبلها

: يا سيّدي هذه هدية مني وحسنة عن أولادي للست

نرجس .. يا سيدي الست نرجس لا تنسى أولادي

أبدًا

: يا أبا خليل هل تريد أن يزعل منك الشيخ منصور
.. وأنا والشيخ حسن ؟ يا أبا خليل اذهب وأفعل ما
طلبتَه منك نريد أن نأكل

: قم يا أبا خليل .. قم .. لا تناقش سيّدك .. قال
ذلك أبو أحمد وهو ينهض

عمّ الخبر بسرعة في كل شاطئ الزهور , وغصت
ديار الشيخ منصور بأهل الشاطئ , رجالاً ونساءً ,
كباراً وصغاراً مهنيين مباركين تملأ قلوبهم الفرحة ,
فلنرجس مكانة خاصة في نفس كل أهل الشاطئ
والقرى المجاورة , وكانت أم أحمد وأولادها أول
الواصلين , الذين تكوموا كالعادة حول عيشي
: هنيئاً لك يا طاهرة .. الله أرسل لك أطهر وأنقى
خلقه .. أنا سعيدة لأجلك ولأجل أخي علوش

بكتا معاً

: أنت نبيلة يا أم أحمد .. الله يفرحك بأولادك

: الآن اطمأن قلبي .. لن أخاف بعد اليوم ..

علوش لن يرحل أبداً

كانت نرجس سعيدة , أهل الشاطئ كلهم كانوا معها

, شاركوها فرحتها , فكل نساء وبنات الشاطئ

شاركن في الطبخ والنفخ .. دَبَكَ الجميع , رجالاً

ونساءً , وغنوا وأكلوا . قُبيل انتصاف الليل لم يبق

إلا الشيخ حبيب والشيخ حسن وبيت أبو أحمد

: يا ابنتي الآن أودع هذه الدنيا مرتاح البال .. الآن

أنا مطمئن عليك , فأنت في يدِ أمانة صادقة نظيفة

, وأنت يا ولدي .. نرجس ريحانة الشيخ منصور

وريحانة الشيخ حبيب , نضعها أمانة بين يديك

النظيفتين

قال ذلك وهمّ بالوقوف

: إلى أين يا عماه ؟ كأنك تودعنا !

: نعم يا ابنتي نغادر أنا وعمك الشيخ حسن ، إلهي

يهنئك ويدوم السعادة لقلبك ، ويرزقك الذرية التي

تشبهك وتشبه هذا النبيل

: يا عماه .. لا أنا ولا علوش مهيان ؛ لنكون

زوجين في هذه اللحظة ، دعنا اليوم زوجين يهيئان

نفسيهما لليلة الدخلة ، اليوم تباتان هنا في بيت

الشيخ منصور .. بيتك ، هنا لا ينام أحد ، هذا مكانه

وجناحه ، حيث كان يصلي ويقرأ ويسهر وينام ،

مع أحبائه وخلانه ، وأنا أنام في بيتي .. في مكاني

في جناحي ، وغداً لناظره قريب

: تنطقين الجواهر دائماً يا ابنتي - قال الشيخ حسن

-

: أصبت يا ابنتي .. إلهي يلبسك ثوب السترة

والكرامة والنعيم ويرزقك وزوجك من عنده , سأغادر

هذه الحياة كما غادر أبوك وأمك , راضياً عنك

داعياً لك

ودّع اسماعيل وخرنا الشيخ حبيب والشيخ حسن

: يا ستنا .. اليوم نأخذ معنا أخي عليشي .. نودعه

وغداً من الفجر يكون عندكم

: يا أبا أحمد علوش من يقرر وليس أنا , هذا بيته

وذاك بيت أخيه , هو من الآن وحتى آخر العمر ..

الأمر الناهي , لن أقف أمامه ولا بجانبه .. أنا خلفه

, فهو الثوب الذي يسترني والغطاء الذي ألوذ فيه ؛

ليدفئني ويحميني , سأكون له , كما كانت فاطمة
مع الشيخ منصور , فهو من لحظة فراغ الشيخ
حسن من عقدنا .. سيّد هذا البيت وبابه ومحرابه
: بارك الله بك يا أصيلة يا ابنة الأصلاء - قال

اسماعيل

ردّ الشيخ حبيب

: لم تقاجئيني يا بنيتي .. من رضعت من ثدي
فاطمة ورافقت الشيخ منصور .. من كانت أقرب
مَنْ في الكون إلى روحه وقلبه لن تكون غير ذلك
بيت الشيخ منصور هو عبارة عن بيتين بباب
خارجي واحد , البيت الأول .. تدخل .. ينقسم إلى
نصفين النصف الأول إلى اليمين , واسع .. هو
للجلوس ولمكنة الخياطة ومنامة لئرجس ولوالدتها

قبل أن تغادر هذه الحياة ، النصف الثاني إلى
اليسار ما بقي منه .. قسم صغير ، فيه المطبخ
وأدواته وحاجيات الاستخدام اليومية ، يلي ذلك باب
داخلي هو بيت (المونة) والحمام ، يتعامد معه ،
البيت الثاني ، وهو مجلس ومنامة الشيخ منصور
وضيوفه قبل أن يتوفاه الله ، حافظت عليه نرجس
كما تركه والدها نظيفاً مرتباً ، وأمامهما مصطبة
على امتدادهما على طرفها شجرة توت معمرة ،
وأحواض الورد والحبق

عندما وصل اسماعيل وخرنا وعليشي ، كان الأولاد
مازالوا مستيقظين سأل أحمد عليشي

:عمو ألن تأتي إلينا كل يوم ، وتنام عندنا ؟

: يا أولاد عمكم علوش من الغد سيذهب إلى بيته

الجديد .. بيت الشيخ منصور صار بيته وبيت

زوجته نرجس - أجابت خزنا

: سآتي كل يوم ودائماً , ولن أفارقكم أبداً حتى

تفارقني الروح

أشاحت خزنا بوجهها عنهم بعد أن امتلأت عيناها

بالدموع وهي تقول

: أنا ذاهبة لأسخن الماء لتستحم قبل أن تغادرنا

: أنا سعيد لأجلك ولأجل هذه الطاهرة نرجس وحزين

لأنك ستترك هذا البيت , ولكنك لن تتركنا , أليس

كذلك ؟

: يا أبا أحمد أنت أخي في الدنيا وفي الآخرة إن

شاء الله , وأولادك قطعة من روحي , وأم أحمد أم

وأخت , وهذا البيت هو الأقرب إليّ في كل هذه

الدنيا ، سنبقى كما كنا ، ولن تكون في أي مكان إلا
وأنا معك

حاولت نرجس أن تنام ، لم تستطع صارت تستجدي
الغفو ولكن دون جدوى كلما غاب أبوها تأتي أمها
مبتسمان سعيدان وما أن يغيبا حتى يأتي علوش ()
يارب .. يا خالقي .. نور دربي ، وامسك بيدي إلى
ما تحب وترضى ، يارب .. هذا الرجل ملأ روحي
وقلبي حباً ، يا رب .. اجعله لي أباً ، وأخاً ، وأماً ،
وزوجاً ، يارب .. ودمه لي ، كما هو في روحي
وقلبي وضميري ويقيني ، طاهراً ، نقياً ، صادقاً ،
وفياً ، واعنه وسقه لِمَ تحب وترضى .. لك الشكر
والحمد بعدد ما خلقت)

بكتُ حتى أخذها النوم فُبيل الفجر ، استيقظت في

السابعة على دق سكينة

: صباح الخير يا أخت سكينة

: الله يسعد صباحك يا أجمل عروس في الدنيا

: الله يسعد قلبك يا طيبة ويرزقك كما رزقني إنه

كريم

: الله يزيدك من نعيمه وإن شاء الله أحمل أولادك

بيدي.. يا ست نرجس أتيت باكراً , وأنا آسفة , كان

عليّ أن أتركك تتامين لأنك أمس أرهقت .. قصدت

أن أسألك - وصمتت -

: لِمَ صمتت يا أخت سكينة ؟ هل تريدين أن

تتركييني ؟

: يا ست نرجس .. من اليوم وصاعداً صار لك

وضع مختلف , هل تريدين أن أبقى أم أغادر ؟

أقصد أكون جارة كما بقيّة الجيران ؟ أم يبقى الأمر
كما كان ؟

: يا أخت سكينه .. أنت هنا منذ كنت طفلة , أنت
رفيقة عمري وأيامي , يا سكينه أنا لا أستطيع تخيل
هذا البيت بدونك , إلا في حالة واحدة وهي أن
يرزقك الله كما رزقني وفي هذه الحالة سأتحمل
غيابك , يا سكينه أنت عشت معي ومع الشيخ
منصور وفاطمة كأنك ابنتهما كما أنا , وكي تكوني
سعيدة ومطمئنة سأسأل سيّد البيت وأمامك
: يا ست نرجس .. طلبي أن تسأليه بينك وبينه ,
وليس أمامي , وأقسم لك إنني سأقبل الأمر كيفما
كان الجواب , وسأبقى أختك التي تعرفينها ما حييت
: الآن تصرفني كأنه لم يحدث أي شيء , اليوم أنا

بحاجتك جداً يا سكينة

: لن أتركك أبداً

عندما جاء عليشي واسماعيل وخزنا كان الشيخ
حبيب والشيخ حسن للتو فرغا من تناول الطعام ،
وكأنهما كانا ينتظران حضورهم لتوديعهم ، اتجهت
خزنا نحو نرجس وبيدها صرة وهمست

: هذي ثياب أخي عليشي

ابتسمت وكأنها تستلم كنزاً

: بارك الله بك وبأخيك وبأبنائك وبزوجك أيتها

الطيبة النقية ، أرجو من الله أن يبقيك بجانبني

وبجانبه

: نحن نستأذنكم بالمغادرة - قال الشيخ حسن

وقف الجميع ، وذهب عليشي واسماعيل وأحضرا

الفرسين ، ودّع الشيخ حسن الجميع وابتهل لله
لأجلهم وخص نرجس بالدعاء وهمّ بامتطاء الفرس ،
أخذ عليشي يديه وقبلهما ، انحنى الشيخ محاولاً
تقبيل يد عليشي ، وبسرعة كان يضع يداً تحت
ابطه ويداً مسك فخذة ورفعها كأنه يرفع طفلاً
ووضعه فوق سرج الحصان وهو يقول له

: تذكرني بصلاتك ودعائك يا سيّدي

اتجه نحو عمه الشيخ حبيب ومسك يديه وقبلهما ،
حاول أن يمنعه فلم يستطع

: يا ولدي وأخي وصديقي وصهري علوش كما

تحب أن تُسميك رفيقة روجي نرجس .. هذي فلذة

كبد الشيخ منصور .. مهجة الطاهرة فاطمة ..

أمانة عندك ، وأنا واثق أنك ستحافظ عليها أكثر منا

جميعاً .. بقي لي عندك طلب قبل أن أغانر ,
والأعمار بيد خالقها .. بل وصية .. والوصية توكل
لأقرب المقربين , وأنت هو .. وصيتي أن تأتي بي
عندما أموت وتدفنني قرب أخي , وأن تصلي أنت
عليّ .. وأنت يا ابنتي .. علوش وديعتي عندك
: يا سيّدي .. أسأل الله أن يبقيني حتى أنفذ كل ما
تحب وتريد , وأطال الله بعمرك وأمدك بالصحة
العافية .. اذكرنا دائماً بصلاتك ودعائك .. ثم
ضمه إلى صدره ورفعاه فوق سرج حصانه
غصّ بيت علوش ورجس بالمهنتين من شاطئ
الزهور , صبايا الشاطئ لم يدعن نرجس تتحرك
: يا ست نرجس كلنا بنات وحفيدات الشيخ منصور
وحقك علينا أن نحتفل بك , فأناملك سترٌ لنا وغطاء

فكل ما نرتديه ونلبسه هو من صنع يديك
قُبيل غروب الشمس اقتربت سكينه من نرجس
: يا ست نرجس ذهب الجميع ماذا تريدني أن أفعل
قبل أن أغادر؟

: أريدك أن تملئي (الدست) الكبير ماءً وتشعلي
تحتة

ودعتهم معذرة وغادرت , لم يبق في البيت إلا هي
وهو

: تفضل لنذهب إلى البيت الثاني

جلس على (الدشك) صامتاً , نظرت إليه بما
أوتيت من حب وعشق وإعجاب وتقديس .. صارت
تصلي وتشكر الله الذي أرسل لها من يقتل وحدتها
ويملاً روحها طمأنينة وحباً ودفناً , حاولت أن تجد

اي كلام تخرجه من صمته وخجله , تذكرت خزنا (عيشي بمئة رجل ولكنه يمتلئ بأدب وخجل الأطفال) وجدت ضالتها قامت وتناولت تنكة فارغة بيد ومسكت ركبته بالأخرى , وبسرعة انتبه ووقف : ماذا تريدن أن تفعلي ؟

: أريد أن أنقل الماء الساخن من (الدست) إلى البيت الجواني

: ارتاحي

فتح الباب جيداً وحمل الدست كمن يحمل طنجرة صغيرة ودخل به إلى البيت الجواني , أغلقت الباب ولحقت به , عندما وضع الدست وانتصب , تقدمت نحوه ومسكت بيديه وراحت تقبلهما وهي تهمس

: (إلهي يحميلي ياك , ويمدك بقوة من عنده ويفتح

أمامك أبواب الدني ، وينور دربك أين اتجهت ..
كما حميتني ، كما نورت أيامي ولياليّ ، كما فتحت
لي أبواب الكون)

وبسرعة رفعها وضمّها كمن يرفع طفلة إلى صدره
: يا ابنة الشيخ منصور ، أنت من أوقف إنساناً ،
منذ خمسين عاماً يسير في هذا الكون ، لم ينم في
مكان واحد أكثر من عام ، لم أحمل معي إلا جثتي
، لم أخبئ في جيبتي رغيف خبزٍ ، ولا قطرة ماءٍ ،
ولا درهماً ، كنت أسير حتى أصل إلى قبوري ، وفي
تلك الليلة العاصفة ، جاءني الشيخ منصور ، قال
لي يا علوش نرجس ابنتي قريبة منك هي وديعتي
عندك إياك أن تغادر حتى تأذن لك ، وإلا سأزعل
منك .. اعتقد أنه مجرد حلم ، جاءني في الليلة

التالية وفي الليلة الثالثة ، عاهدته ، وها أنا أفي
بوعدي له .. لن أغانر حتى تأذن لي
كانت يداها تطوق عنقه وعيناها في عينيه .. تملأ
رئتيها بأنفاسه وهو يهمس لها قصته ، عانقته
وعانقها طويلاً ، نزعت عنه ثيابه ، وأجلسته على
كرسي الخشب وراحت تحممه وتليفه كمن تحم
طفلاً ، ولكن طفلاً كالجبل ، عندما أنهت حمامه
حاولت إخراجة ، ولكنه بودٍ يزلزل جبلاً ، راح يمسح
عنها خفر الأنثى .. استسلمت .. بنهر متدفق من
الحب والحنان والرقّة حممها ثم حملها بين يديه و
هو يغرقها بقبله وضمه ، وخرج بها إلى فراشها ،
راح يبتهل لله ان يهبها القدرة على تحمله ، وأن
يمنحه كل ما يجعلها سعيدة وهنيئة ، تمدد وضمها

إليه , طوقته وغابا في بحر من الوجد .. أحس أنه
صار بإمكانه مباشرتها .. بادرها .. صرخت
وطوقته وسكنت مال جانباً ووضع رأسها فوق زنده
ولفها إلى صدره وسحب الغطاء فوقهما وهداً ..
سحبت نرجس قطعة (زريقي) من تحت وسادتها
وضعتها بين فخذها وأغرقت وجهها في صدره
واستسلمت لنوم لم تعرفه من قبل .
مع أول خيوط الفجر فتحت عينيها ونظرت إلى
وجهه التقت عيناها بعينه .. كان مستيقظاً ينظر
إليها

: صباح الخير يا أميري ومليكي وملاكي

ضمّها وراح يقبلها

: هل آلمتك .. هل أنت بخير ؟

: قليلاً .. اليوم وغداً أكون بخير .. انس .. المهم
أن تكون أنت سعيداً .. يا علوش .. يا حبيب
روحي , كل ما في هذا الكون من سعادة وهناء
وصدق ووفاء أنت هو .. انس هذه اللحظة .. التي
لا بد منها

هو يعرف أنه مختلف (الحمد لله هي بخير) قال
لنفسه

: ألا تلاحظ نحن ما زلنا عاريين , انسلت من بين
يديه بهدوء وهي تسحب شرشفاً كان قريبها , نفتت
نفسها به وقامت وفتحت صندوقها أخرجت له
سروالاً وقميصاً , ناولته : تفضل
ثم أخرجت ثيابها

: لمن هذه يا نرجس ؟

: هي لك .. خيَّطتها لك من شهرور وهذا (قنباز

وساكو) ترتديهم اليوم

: هذا غير الذي أرسلته مع أم أحمد

: يا علوش أعتقد إنني تجاوزت الخامسة والثلاثين ,

كثُرُ الذين مرّوا على هذا البيت .. كثرُ جداً ,

ضيوف الشيخ منصور كانوا لا يُعدون , لم يوقظ

أحد منهم الأنثى بداخلي , لم يجعل أحد منهم

نرجس ولو للحظة تفكر أنها أنثى .. حتى جاءت

أختك خزنا , وتحديثُ عنك .. تخيلاتك .. - كانت

أنهت ارتداء ثيابها , وارتدى هو سرواله الجديد

وقميصه , وعادت رفعت الغطاء وان্দست في

حضنه وتابعت - صرت أمامي كأني أراك ..

صفاتك وسمعتك , لم تترك بي شيئاً لم يستيقظ ..

عندما غادرت خزنا .. بكيت .. بكيت .. وسألت
الله أن يبعد عني هذا الوسواس , للوهلة الأولى
أحسست أنني أخطئ , ثم صرت أعتقد أنني
ممسوسة , عندما أتيتم في اليوم التالي أحسست
نفسي طفلة مراهقة وجدت فتى أحلامها.. بعد أن
غادرت أحسست أنني عجوزٌ تريد أن تتسلق جبلاً
صار علوش كظلي لا يفارقني لحظة واحدة
قالت ذلك وتكورت في حضنه أكثر وصمتت , مدّ
يده إلى شعرها وراح يعبث به , حسّ أن ماءً يبيل
زنده , أمال رأسها حتى رأى وجهها
: لماذا ؟ .. اطلبني الروح لن أتوان لحظة .. لماذا
؟
: اعذرنني يا عمري .. سامحني .. إنها دموع الفرح

والسعادة والطمأنينة

غمرها وسقط كالندى وهو يقول

: حاولي أن تُعبري عن ذلك بطريقة أخرى .. لا

قدرة لي على تحمل هذا .. أرجوك

: سأفعل .. سأحاول .. يا علوش ما أخذتني إليه

بعد .. بعد .. أفق الحلم .. احكِ لي الآن عن الحلم

الذي لم يدعك تكمل سفرك الطويل , لقد سردته في

وقتٍ لم تدعني عيناك وأنفاسك وصدرك , أسمع أو

أرى

غمرها مرّة أخرى

: في الليلة الأولى قبيل الفجر رأيت نفسي كأنني

أجلس قرب مزار قديم في غابة صغيرة من السنديان

, وإلا برجل طويل يرتدي عمامة بيضاء وثياباً كلها

بيضاء ألقى عليّ التحية وسألني

: ألم تتعب ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟

وقفت وسلمت عليه وقلت له

: عندما أتعب أكون قد وصلت إلى نهاية الطريق

.. يا سيّدي أنا أبحث عن قبوري عندما أجده أقف

قال لي

: ما رأيك أن أبحث أنا عنك ؟ انتظرنني هنا عند

نرجس .. إياك أن تغادر حتى تأذن لك .. وإلا

سأزعل منك ولن أساعدك بإيجاد ضالتك . أيقظني

صياح الديك قربي , رافقني اللحم كل النهار ,

حزنت جداً لأنني لم أعرف هذا الرجل , لأنه لم يقل

لي أسمه .. أعطاني اسم نرجس .. أين أجد نرجس

وكيف ؟ وكيف سأبدأ السؤال عنها ؟ صرت أكلمه

بيني وبين نفسي .. صعّبتها عليّ كثيراً يا سيّدي ..
أسأل عن امرأة ؟ لا أستطيع يا سيّدي .. لا قدرة
لي على ذلك .

مضى ذلك النهار العاصف وأتى ليله أشدّ عصفاً ,
حاولت المغادرة ولكن اسماعيل وزوجته خزنا
وأولادهما , وبصدق يا نرجس الذي أمال كفة البقاء
كان الأولاد طبعاً بعد قدري , أنا أجزم أن هؤلاء
الأولاد طاهرون من صلب طاهر ورحم طاهر ,
قلت أبقى للغد , وفي الليل رأيت نفسي في ذات
المكان وأتى نفس الرجل ودار نفس الحديث سألته
هذه المرة

: أين هي نرجس يا سيدي ؟

رفع عكازه وأشار إلى بيت قريب جداً من المكان ,

وقال

: عاهدني ألا تغادر حتى تأذن لك , وأنا أعاهدك

أنني سأجد لك ما تبحث عنه ,

وكما الليلة الماضية صاح الديك , في منتصف

النهار انقشع الجوّ قليلاً خرجت ووقفت أمام بيت

أبي أحمد , لحق بي أبو أحمد و زوجته وهي تقول

(إياك أن تدعه يرحل) ولحق بهما الأولاد وتحلقوا

حولي , وقف أبو أحمد بجانبني , وقال

: ناشدتك الله ألا تغادر , الجوّ رديء ومخيف , إن

لم يكن إكراماً لي إكراماً للأولاد

: اطمئن لن أغادر قبل أن أستأذنكم

بيت أبو أحمد يطلّ على هذه الغابة الصغيرة ,

تأملتها , هي نفس الغابة التي رأيتها في الحلم وهي

نفس الغابة التي بانتي لي قبل أن أصل إلى تنور
بيت أبي أحمد , وهي نفس الغابة التي كنت أود
الوصول إليها وقضاء هذه الأيام الصعبة فيها ,
أحسست بالخوف , سألت اسماعيل

: ما هذه الغابة يا أبا أحمد ؟

: هذه مقبرة الضيعة

: فيها مزار ؟

: نعم فيها أضرحة لمؤمنين كثر أقدمهم الشيخ عبد

الله وأحدثهم الشيخ منصور قدسهم الله جميعاً

: ترافقني إليها , أريد أن أزورها ؟

: الآن ؟

: نعم

: أكيد أرافقك ولكن الطقس لم يهدأ بعد , ألا ترى

الغيم قطعاناً قادمة والريح قوية جداً ؟ سنزورها كثيراً

ومتى شئت عندما تمرّ هذه الأيام الصعبة

: بلى أراها .. هي ليست بعيدة نذهب نزور ونعود

بسرعة

تبعته وصلنا إلى الحوش الرئيسي الذي داخله

ضريح الشيخ عبدالله وقبته , قرأنا الفاتحة وخرجنا ,

وقف أمام ضريح وفتح يديه , وفتحت يدي وقرأنا

الفاتحة , نظرت حولي .. عرفت المكان , بل

عرفت الصخرة التي كنت أجلس عليها .. انتبه

اسماعيل وسألني

: أتبحث عن شيء ؟

: لا أبداً .. لمن هذا الضريح يا أبا أحمد ؟

: هذا ضريح الشيخ منصور قدس الله سره , غادرنا

منذ فترة ، ولدي منصور الذي لا يغادر حضنك ..
ولد في نفس اليوم الذي توفاه الله ، وسميته على
اسمه تيمناً وتبركاً

وقفت قرب الصخرة التي تجاور الضريح وصرت
أنظر للبعيد ، وقع نظري على المكان الذي أشار
إليه الشيخ سألت اسماعيل

: يا أبا أحمد لمن ذاك البيت ؟

: هذا بيت الشيخ منصور قدس الله سره الذي كنت
أحدثك عنه الآن

: له أولاد .. أليس كذلك ؟

: الشيخ ، ولد له أولاد كثير ، توفاهم الله وهم صغار
لم يبق له سوى الجلييلة نرجس

أيقنت أن الذي يأتيني في الحلم هو الشيخ منصور

, اتجهت نحوه بحيث يكون ظهري لأبي أحمد خوفاً
أن يرى دموعي ولكنه أحس بي وأعتقد أنه رأى
دموعي فتركني وابتعد قليلاً , في الليل جاء الشيخ
ودار بيننا نفس الحوار ولكنني هذه المرة عاهدته ألا
أغادر حتى تأذني لي , صرت أذهب إليه كل يوم ,
أصبّحه وأمسيه

: كل أهل الضيعة صاروا يتحدثون عن مواظبتك
على زيارته فسألت خزنا وهي تتحدث عنك , ألم
يسأله أبي أحمد إن كان يعرف الشيخ منصور
فقال لي

: بلى سأله .. أجابه (لم نلتق في الحياة ولكنني
أعرفه)

: كثيرون الذين سألوني نفس السؤال , وكم كنت

أتمنى أن ينسى الناس هذا السؤال

: ألم يأتك بعد ذلك ؟

: يوم قلت لي الشيخ حبيب يريدك , جاءني قبلها

بيومين وقال لي (ألن تذهب وتزور أخي الشيخ

حبيب ؟ هو طاهر ونقي) وكنت كل يوم أنوي أن

أفاتحك لأذهب إليه .. وعندما أراك يُخرسني أدبك ,

وجمالك ونسبك , وأنا الغريب , لا أرضاً ولا سماء ,

وخفت أن يغضبك طلبي , فأضطر للرحيل ,

فأنقض عهدي لأبيك , استغربت أن الشيخ لم يكن

أخاه , سألت أبي أحمد .. أسمع كل الناس هنا

يلفظون اسم الشيخ حبيب ولا يكونونه لماذا ؟

قال (الشيخ لا يرضى .. فأبناؤه ليسوا على صراطه

وصراط عمهم , وأعتقد أنه غير راض عنهم)

: آه يا علوش .. لو تأخرت يوماً آخراً كنت قتلت
خفري وجعلتني أكبّ ماء وجهي أمامك , طُهرَكَ
منعَكَ من النظر في عيني , وإلا كنت رأيت فيهما
كل ما تريد

: أنا أعطيت نفسي مهلة , وكنت سأذهب إلى
الشيخ حبيب , وأطلب يدك فإن رأيت عنده القبول
فهو يتوسط عندك , وإن رفض كنت سأطلب منه
أن يبقى الأمرُ سرّاً بيني وبينه , وبذلك أبقى على
عهدي مع والدك .

: كنت ستذهب إليه ولا تخبره بحلمك ؟
: لا .. فكرت بها جيداً .. وقررت ألا أخبره ..
قلت الذي جعل الشيخ منصور يأتييني قادر أن
يحمّله إليه كذلك

: برأيك جاءه كذلك ؟

: أعتقد

: وأنا أجزم , أن يصرح الشيخ حبيب أمام الشيخ

حسن وأمامنا جميعاً , أنك الأقرب وأن يعهد

بوصيته لك , أن تأتي به وتصلي عليه , لها

دلالات كثيرة وكبيرة

: إنها الأقرب إلى قلبي وروحي , أرجو من الله أن

يوفقني بالوفاء بها

: ألم تملّ من ثرثرتي ؟ ألم تتعب من الليل ورأسي

لم يغادر زندك ؟

ضمها بلطف

: أنت باقة نرجس تتكئ على وريد القلب .. حمامة

تهدل فتماً وحدتي أنساً .. يا نرجس خمسون عاماً

وأنا مصرُّ على طلاقها , زاهدٌ بها وبما فيها , كأنه
لم يحن الوقت لأترك هذا القميص
: أيها الجبل العالي .. أنا باقة نرجس في سفحك
وحمامة كانت تجهل الطيران , وعندما طارت حطت
على غصنك
: إنني أخاف عليك مني
: لماذا ؟
: أن أنسى أو أسهى ولا أتمالك نفسي فأدخلك بين
أضلاعي
تكورت وراحت تلوذ به , كأنها تريد ذلك , ثم
تراجعت قليلاً وضمت وجهه بيديها الصغيرتين
: من أين أتيت وأين كنت ؟ أين وجدك الشيخ
منصور ولماذا تأخر ؟

وبكت وغمرت وجهها بين كتفه وعنقه

: يا توءم الروح .. نقل جبلٍ بقفة , أهون عليّ من

رؤيتك تبكين .. أرجوك لا قدرة لدي على ذلك

تراجعت قليلاً ونظرت في عينيه

: أيها الملاك .. أنا على ثقة , لو دعوت ربك أن

يجعل لك جناحين لفعل .. يا سيّدي وتوءم روعي

.. دعني أعبر عن فرحي بك , فللفرح دموع أيضاً

.. يلزمني وقت طويل حتى أصدّق أنك معي وقربي

.. ألم تجع ؟ سأقوم لأحضر لك الطعام , لقد

أشرقت الشمس

وهو يلفها

: لا لم أجع .. لم يكن للطعام لدي أي أهمية ..

فكيف الآن .. ما دمت بقربي لا حاجة لي بالطعام

أغرقت شفته بين شفتيها وانسلت من حضنه وهي
تقول

: كي أعيش أطول زمن بين يديك يجب أن تأكل
عندما وقفت في المرة الأولى , لم تمسك ركبتها ,
والآن لم تمسكها هي لم تنتبه هو انتبه , لم يقل
شيئاً , تراجع قليلاً رأت علوش ثلثه على الفراش
وثلت خارجه , كانت رجليه من الركبة إلى القدمين
خارج الغطاء والفراش , نظرت إليه وابتسمت
وانحنى ملتقطاً قطعة الزريقي التي عليها بقع الدم
وانتصبت مرة أخرى ولم تنتبه .. سألها
: حتى لندرس .. ابنة الشيخ منصور ؟
: هي العادات أيها النبيل .. سأنشرها فوق الياسمين
لبضع ساعات فقط .. وإن كان ذلك يُغضبك لن

أفعل

: لا .. افعلي ما تشائين .. أنا أثق أن الخطأ لم
يقترّب منك يوماً

: كأنك مصر ألا تدعني أغادر حضنك اليوم
قالت ذلك وخطت خطوتين .. انتبهت أنها منتصبه
تماماً .. تمشي ولا تمسك ركبتها.. وقفت .. صممت
.. هزت رجلها .. تقدمت خطوة .. وضعت يدها
على عينيها .. حاولت أن تتذكر .. تقدمت نحوه
خطوتين ووقفت .. تذكرت .. كانت نائمة ,
استيقظت عليه وهو يرفع الغطاء عن رجلها فتحت
عينيها قليلاً .. رآته يضع يده في فمه يبلاها بلعابه
ويمسح ركبتها , كرر ذلك عدة مرات وهو يتمتم , لم
تفهم شيئاً .. تذكرت أنها تكورت مرة أخرى في

حضنه وغفت .. اندفعت إلى قدميه وراحت تقبلهما

وتبكي , حضنها بكتا يديه وأعادها إلى حضنه

وراح يمسح على رأسها ووجهها ويرجوها أن تكفّ

عن البكاء , مسك يدها وراح يقبلها

: أرجوك .. اسمعيني .. أيتها الطاهرة .. الله وحده

شفاك .. انتهى الذنب يا ابنة الشيخ منصور .. الله

وحده الشافي المعافي

: تذكرت .. تذكرت .. سامحني .. أنت سامحني

.. أنا من يجب أن تقبل يديك وقدميك .. أنا أمشي

يا علي .. صمتت لحظة .. أنا أمشي يا علوش

: نرجس اسمعيني جيداً .. لا تكرري ذلك مرة أخرى

.. أنت نفسي .. أنت روحي .. قبليني فقط حيث

يجب .. أسمعيني ؟

: نعم .. نعم أسمعك .. سأفعل كل ما تحب وتريد

غمرت وجهه مرة أخرى وراحت تمرغ وجهها به
وتبكي , تركها حتى هدأت قليلاً , وراح رأسها فوق
زنده ونظر في عينيها

: أنت من قال - كأنك مصر ألا أغادر حضنك -
ها أعدتك إليه

أغرقت عينيها في عينيه وابتسمت بمنتهى النشوة

: أرجو من الله ألا أغادره إلا إلى القبر

انسلت مرة أخرى من حضنه ووقفت , نظرت إلى
رجليها ونظرت إليه , رفعت اليمين ووقفت على
رجل واحدة ثم رفعت اليسار , ثم راحت ترقص ..
ترقص .. ترقص تركها حتى رأى دموعها , وقف
ورفعها على زنده حتى صار وجهها مقابل وجهه

: أنت أعلى بكثير من الروح .. أنا جائع

طوقت رأسه

: حاضر

: نرجس .. توعم الروح .. أنت استيقظتِ وجدتِ

نفسك هكذا

: حاضر يا دنيايَ وجنتي وعالمي كله .. حاضر

التقطت قطعة الزريقي وفتحت الباب وخرجت ,

وجدت باب البيت الثاني مفتوحاً عرفت أنها سكينه ,

اتجهت نحو الياسمينه وفرشت فوقها قطعة القماش

الأبيض الملطخة بعدة قطرات دم , وعادت مسرعة

والخجل يكاد يقتلها , خرجت سكينه من البيت

والمفاجأة تكاد تذهب لبّها , أسرعت إليها وغمرتها

وهي تقول

: ليلة مباركة يا ست نرجس .. ليلة مباركة يا ابنة
الشيخ منصور يا ابنة النقية فاطمة , ماذا جرى يا
سيّدي؟! إنك تمشين .. إنك تمشين .. الحمد لله
.. الحمد لله

: يا سكينه .. يا أختي التي لم تلاها أمي أنا .. الله
القادر الرحيم .. منّ عليّ .. الحمد لله

: سبحان الله .. سبحانه ما أعدله .. سبحانه ما
ألطفه , هذا يوم مبارك .. يا سيّدي الطعام في
البيت جاهز تفضلوا سأذهب الآن أملاً الكون فرحاً
: بارك الله بك يا أختاه .. تمهلي

: لا .. لن أتمهل .. يجب أن نحدث بنعم الله ..
يجب أن يفرح كل من يعرفك ويعرف والديك وزوجك
.. أنت قديستهم , ويجب يعرفوا كم كانوا على حق

.. ليلة مباركة .. لن أتأخر

كان علوش يسمع كل كلمة , دخلت إليه

: سمعت ؟

: نعم سمعت

: لن يتركك الناس اليوم لي .. حبيبي أريد أن

أسألك شيئاً , أمس رجنتي سكينه أن أسألك عنه ؟

: أمريني يا سيّدي

: أرجوك .. نرجس فقط .. نرجس .. أنت -

وصمتت - حبيبي سكينه في هذا البيت منذ زمن

طويل جداً , سألتني إن كنت تريدها أن تبقى

: أجيبك أنت أم هي ؟

: يا عمري .. يا كل حياتي .. بل هي , تفضل ..

إن تأخرنا عن الطعام لن نستطيع أن نأكل ,

: حاضر الحق معك .. تفضلي

أول من ذهبت إليه سكينه أمها وأبوها

: نرجس .. يا أبي .. نرجس .. يا أمي

: ما بالها يا ابنتي ؟ صاحبا سوية

: بفضل الله تمشي

: يا ابنتي متى كانت لا تمشي ؟

: يا أبي .. كانت تمشي عرجاء .. تمشي الآن

أفضل مني .. نرجس استيقظت ليس برجلها أي

عيب

تركتهم وأسرعت كالمجنونة إلى بيت اسماعيل

: الله يصبحكم بالخير .. ليلة مباركة على كل

شاطئ الزهور

: الله يسعد بشائرك يا سكينه يا وفيه .. هل

استيقظت نرجس ؟

: نعم استيقظت .. وتزوجت .. ولكن ليس هو

الخبر يا أبا أحمد

: ما الخبر يا سكينه ؟ الفرح يطير من عينيك -

سألتها بلهفة خزنا

: نرجس .. نرجس يا أم أحمد تمشي

: يا سكينه ومتى كانت لا تمشي؟! سألتها اسماعيل

: يا أبا أحمد نرجس استيقظت وليس بها أي علة ..

تمشي أفضل منا .. الله سبحانه وتعالى شفاها

تركتهم وغادرت لا تنتظر خلفها وهي تقول بأعلى

صوتها .. نرجس النقية الطاهرة شفاها الله ..

نرجس تمشي أفضل منا . انتشر الخبر كالنار في

الهشيم , وهرعت النساء لتبارك وتستطلع الأمر ,

وانتظر الرجال لحين عودة النساء ؛ ليتأكدوا

: انتظريني أذهب معك

: لا قدرة لي على الانتظار .. إلحق بي

: ألم أقل لك هذا الرجل وليّ من أولياء الله

الصالحين ؟ سبحان الله الشافي المعافي

كانت خزنا أول الواصلين , وكانت أول المفاجآت

عندما قامت لملاقاتها كان ابنها الصغير منصور

في حضن نرجس , صارت تنظر إليها وهي قادمة

.. أحست أن الدم يتجمد في عروقها .. نرجس

تمشي منتصبه وتحمل منصور الصغير بين يديها ,

البهجة تطير كالفرشات من كل مسام في وجهها

: ليلة مباركة .. يا تقية .. يا نقية .. يا طاهرة يا

ابنة الأطهار

عانقتها وبكت

: إلهي يبارك بك يا أم أحمد .. بركتكم وفضلكم

على نرجس إلى يوم يبعثون , إلى بيتكم الطاهر

أرسل الله هذا الطاهر , ومن عندكم أفاض الله عليّ

بكرمه وفضله , وبه عوضني بأكثر مما يحلم البشر

: أفضالك على كل أهل الشاطئ يا ست نرجس

وقبلك أمك وأبوك .. يا رب اجعلنا بقربهم يوم

القيامة

حاولت أن تأخذ عن حضنها الصغير منصور

فرفض وهي تسأل

يا (ويلي) من أتى بمنصور الصغير إلى هنا ..

أنه يرفض أن يتركك

توجهت نحو علوش

: ليلة مباركة يا أخي -وانحنت على يده وقبلتها

: الله يبارك بك وبعيالك .. إياك أن تعيدها مرة

ثانية .. وإلا لن أكلمك أبداً

ردت عليه ودموعها تسيل

: لماذا تريد أن تحرمني من التقرب من الله بأطهار

خلقه؟

: أنت أختي .. أنت تفضلت عليّ يا أم أحمد -

وضع يده فوق رأسها - إلهي يسترك في الدنيا وفي

الآخرة ويرزقك من فيض رزقه

نظرت إلى نرجس مرة أخرى

: الله قادر ياست نرجس .. هنيئاً لمن يكرّمه ربه

بإعلان طهره لكل الناس , برهاناً على قربه منه

نظرت نرجس نحو علوش وامتألت عينيها دموعاً

: الحمد لله والشكر له عدد ما خلق واخترع وكوّن
صارت النساء تتوافد , امتلأت المصطبة والبيت ,
أخذ علوش منصور الصغير وذهب إلى غابة
السنديان ؛ ليصبح على الشيخ منصور .

بين النساء كانت أم جميل , المختصة بتجيد
اللحف والفرشات في شاطئ الزهور ونرجس تتقبل
التهاني منها

: الله يبارك بك يا أم جميل , إن شاء الله كل أيامك
مباركة , يا أم جميل لو لم تأت اليوم بارك الله بك ,
كنت سأرسل إليك , لي عندك طلب

: أنت تأمرين يا ست الكل

: لا يأمر عليك ظالم , إن كان بإمكانك أن تمرّي
غداً , لدي لحافين أريدك أن تفتحيهما وتتجدي

منهما لحافاً واحداً كبيراً

: لديك القماش اللازم ؟

: إن شاء الله

: بإذن الله غداً في العاشرة أكون عندك

بارك الله بك

همست نرجس لسكينة وأم أحمد

: في البيت الجواني تين يابس وتمر تكّرمن وقدمن

لضيوفنا

عندما وصل اسماعيل كان علوش قد غادر والبيت

يعجّ بالنساء , تراجع بعد أن بارك لنرجس وهنأها

بالسلامة والشفاء , سأل زوجته

: أين عيشي

: ناده كما تحب نرجس - علوش - لا أدري أخذ

منصور وغادر

: أمرك ست أم أحمد .. أعرف أين أجده

غادرت النسوة بعد أن ملأن أطراف مناديلهن تيناً
وتمراً , وعاد اسماعيل وأخوته العشرة - علوش -
حاولت نرجس وعلوش ابقاءهم على الطعام

: يا أم أحمد اذهبي وأتي بالأولاد .. بالله عليك أن

تفعلي

: الأيام كثيرة يا نرجس إنشاء الله

تعلق منصور الصغير بعليشي , فرجت نرجس أم

أحمد أن يبقى للمساء فيأتي أحمد أوهي وتأخذه

: يا أم أحمد كأن هذا الطفل يخص هذا البيت

: أقسم لك أنني استغربت عندما رأيته في حضنك

.. اعتقدت في البداية أن أحد اخوته أتى به ولكنني

عندما لم أر أحداً غيره أيقنت أنه أتى وحده

: الحقيقة بعد خروج سكينه بدقائق خرجت إلى

الباب أنظر أين ذهبت رأيتُه قادماً وحده

: الأيام القادمة سأتركه لك دائماً , ولكن ليس الآن

عانقتها ورفعت الطفل إلى صدرها وقبلته , وكأنها

تعذر منه .

عند جذع شجرة التوت وقفت سكينه تنتظرها

لتستأذن

: يا ست نرجس وأنا أريد أن أغادر لأرى أمي وأبي

تقدم علوش نحوها

: يا أخت سكينه بر الوالدين أقرب العبادات إلى الله

, بارك الله بك , وإن شاء الله عباداتك كلها مقبولة

عند الله, نحن كلنا ضيوف عند الشيخ منصور

والسيّدة فاطمة , والفضل للأسبق , يا أخت سكينه
.. من أفضال الله وتكريمه له أن يجعله بقرب
الطاهرين من خلقه , أنك عشت معهما حتى رحلا ,
أنا ونرجس ضيوفك أيضاً حتى نرحل , أدام الله
عليك الصحة والعافية وألبسك أثواب ستره
كان يكلمها وهو مطرق إلى الأرض كعادته , كانت
نرجس تنتظر إليه والوله والشوق كالنار يضطرم في
كل أنحائها , صوته الخفيض الرخيم كالماء يسيل
فوق أزرار نرجسها , التي تفتقت كرف عسافير
فاجأها الفجر فطارت مغردة دفعة واحدة
: يا سيّدي أرجو من الله أن أكون في المكان الذي
وضعتني فيه .. يا سيّدي شرف كبير لي أن أكون
معكم وبقربكم , وهو منتهى سعادتي وحلمي

عند البوابة ودعتها نرجس وهي تقول

: ننتظرك يا أخت سكينة .. مع السلامة

: إلهي يهنئك ويديم عليك الفرح والسعادة يا طاهرة

.. سعادتني لأجلك لا توصف

: والله أعرف .. أنت أختي يا سكينة

عادت مسرعة كان يهّم بالجلوس على (الدشك)

حين وقفت بين يديه ونظرت للأعلى

: حبيبي (اشتقتك) يا عمري .. يا دنياي وجنتي

- ومدّت يديها نحو عنقه

نهضها على زنده وهو يقول

: يا نرجس .. أنا أمام لطفك جبل من ملح أو سكر

أذوب كما يذوب في الماء

طوقته وغمرته بما أوتيت

: أنا غيمة تحيا عندما تتلاشى بين جوانحك
غمرتة .. وراحت تمرغ وجهها بوجهه .. تقبله من
عينيه من خديه من شفثيه , ابتعدت بحيث ترى
عينيه

: سامحني .. هل تجاوزت حدود لياقة الأنثى ؟
: لا .. لا يا نرجس .. لا يا أجمل ما أهداني الله ..
كل أنثى لا تشبهك لا تكون .. كل أنثى ليست
كأنت الآن هي أنثى تاهت عن درب أنوثتها ,
انسلت من بين يديه وأومات له أن يجلس ودخلت
بين رجليه وجلست فوق فخذة ووضعت يديها على
كتفيه

: أنت لم تتم أمس .. فقدماك من الركبة كانتا خارج
الفراش وبدون غطاء , أنا أعرف وأثق .. كان همك

أن أنام أنا وأن أتدفا أنا

: لا تشغلي بالك .. أنا تعودت على هذا , أنا

أعرف حجمي , لا فراش يمتد ولا غطاء يستطيل ,

وتعايشت مع الأمر

: كنت تكوّر رجلك وتنام .. أمس أنا منعتك ..

خوفك عليّ منعك .. سامحني يا عمري وروحي ,

وكل ما في حياتي غداً تأتي أم جميل , وتتجد لنا

لحافاً يغطينا واليوم أضع فراشين على الامتداد ..

ألم تجع ؟

: النظر إليك يغنيني عن أي شيء يا نرجس

: تعال .. سكينه أحضرت لنا الطعام

قضى النهار وبدأت الشمس تسحب آخر خيوطها

من الأفق , وضعت نرجس فراشاً ثانياً على امتداد

الفراش الأول وهيأت لحافاً آخراً وخلعت ثوبها
المزركش المكشكش ومنديل الحرير
: حبيبي اخلع الساكو والقمباز وتمدد
غطته باللحاف الأول وغطت رجليه باللحاف الثاني
ورفعت الغطاء وان্দست في حضنه
: اغفر لي .. ربما أرتكب ذنباً معك , بل متأكدة ,
فأنا أتصرف كمرافقة , أثيرك وأنا لست مهياة لك ..
اغفر لي حبيبي .. أقسم لك لو أستطيع أن أدخل
في صدرك وأعود ضلعاً كما كنت لفعلت
: يا نرجس .. يا مليكة الروح والقلب .. ما تفعلينه
هو منتهى سعادتي وسروري ومتعتي , فلا تكفي
عنه أبداً , سأمنحك اليوم وغداً وإلى أن تقولي أنك
جاهزة , وجودك في حضني لا توازيه الدنيا وما فيها

استيقظت في الليل .. نظرت إليه , ملأ قلبها الفرح
 , كان يلفها بكلتا يديه ويغطُّ في نوم عميق .
 قرابة العاشرة صباحاً جاءت أم جميل , فكت
 اللحافين وفردت قطنهما وراحت تضربهما بقضيب
 طويل

: يا أم جميل ما طلبته ربما يكون صعباً
 : لا تكلمي يا ست نرجس أنا من الأمس فهمت
 جيداً ما تريدين .. يا ست نرجس وأنا أريد أن ينالني
 شيئاً من رضى وبركة هذا المؤمن , سأفعل ما
 يرضيك ويرضيه , أنت لا تدرين ما يقوله الناس هنا
 عنه

: بارك الله بك يا أم جميل وبكل أهلنا في الشاطئ
 كفيتم ووفيتم

مرّ اليومان كأنهما دهر ، لا تستطيع الابتعاد عنه
ولا تستطيع اطفاء نارها المتقدة ، وتقرأ صبره الجميل
الأنيق

: يا ربيع عمري وزهوته .. يا من أرسله الله لوحدتي
, فملأها أنساً وناساً ؛ ولحزني , فزرعه فرحاً وغبطة
؛ ولنهاراتي ولياليّ .. رفيقاً وصديقاً وهواءً أتنفسه
.. الماء الساخن جاهز , ما رأيك أن نغتسل ؟
: لا مفردات في اللغة تستطيع إيفاءك شيئاً من

حقك

غمرها ورشف من رحيق وجدها وخرج وحمل)
الدست) بمائه ودخل به إلى البيت الجواني أغلقت
الباب ودخلت خلفه
: تفضل أنت أولاً

زال الخوف وخفّ الخفر .. كانت تقبل جسده بين
الفينة والفينة وهي تصبّ فوقه الماء وتتمتم وتبتهل
بكلام مبهم , وقف وأخذ منها الصابون وراح يغرقها
بماء روحه وهو يبتهل إلى الله (يا رب هبني كل ما
يفرح ويسعد هذه الطاهرة) ثم حملها بين يديه كمن
يحمل طفلة وخرج بها , مددها فوق فراشها وتمدد
قربها , رأسها فوق زنده وغرقا في بحرٍ من الشوق
والوجد , عندما أحس أنها تريده , قال في خاطره
مرة أخرى (يا رب اجعل كل ما بي ؛ لنرجس طيباً
, يا رب سخر كل ما بي لسعادتها و هنائها)
: حبيبتي .. عندما تتألمين ضعي يدك على يدي
أتوقف
لم ترد .. باشرها

: هل أنت سعيدة ؟

: لا .. هذه ليست سعادة .. هذه فوق ذلك بكثير ..

لا أجد وصفاً لها

: هل تألمت ؟

: الألم الجميل الرائع .. أنت لا تؤلم يا حبيبي أنت

تهب السعادة والجمال والحياة .. إلهي يهب لك كل

ما تحب وتتمنى , يا من وهبتي فوق ما يتخيله

البشر .. يا من جعلتني بقدرة باريك أمشي واعيش

كالبشر

: ألم تعاهديني ألا أرى في عينيك هذه الدموع

: بلى .. عاهدتك عن دموع الحزن .. هذي دموع

الفرح والسعادة .. يا سعادة وفرح عمري وأيامي ,

حتى هذه حاولت ألا أفعلها لم أستطع , يا حبيبي

للآن أنظر إليك وأنا غير مصدقة أنك معي ,
تضمني ..تغمرنني .. تقبلني .. تملأ جوانحي
وجوارحي بالأرواح .. بالحياة , أنت لم تحيي بقربك
من ربك رجلي الميتة .. أنت أحييت كل شيء بي
غمرها وراح يعبث بشعرها حتى غفت وغفا
خبر شفاء ابنة الشيخ منصور صار حديث كل
الضيع , ووصل إلى الكروم البعيدة وتجاوزها , عبد
الله أحد تلامذة الشيخ حبيب المخلصين يمر كل يوم
, في الصباح والمساء , يسألهم ما يحتاجونه , هذا
الصباح جاء باكراً

: صبحك الله بالخير يا سيدي

: الله يسعد صباحك يا عبد الله

: يا سيّد بما تأمرني .. هل من شيءٍ أفعله ؟

: لا يا ولدي لا شيء

: يا سيّدي هل هناك أخبار عن أختي نرجس ؟

: لماذا تسأل يا عبد الله ؟

: كل أهل الكروم بل والضيع , تتحدث عنها

: ما الأمر يا عبد الله

: يا سيّدي يقولون إن الست نرجس استيقظت

صبحية دخلتها وقد شفيت تماماً من عرجها

وصارت تمشي لا تسند رجلها ولا تستند على شيء

: الحمد لله وسبحانه .. بيده كل شيء وله الأمر ..

أعظم إكرام وتكريم هو إكرام وتكريم الخالق يا عبدالله

: الحمد لله .. يا سيّدي بعض الناس يقولون إن

سيّدنا الشيخ منصور جاء ورقاها فشفيت , وناس

يقولون زوجها وليّ من أولياء الله رقاها والله سبحانه

استجاب لرقيته , وبعضهم يقول أن السيّدة العذراء
جاءتها وألبستها ثوبها فشفيت

: يا ولدي يا عبد الله .. الله هو الشافي المعافي ,
وكل الذين ذكرتهم لهم عند باريهم كرامات لا يعرفها
إلا هو سبحانه وتعالى

ولدت نرجس من جديد , تفتح ربيعها , كل يوم يتقد
حنينها لعلوش , مضت شهور وكلما نظرت إليه
يحسها تريد أن تسيل فوقه كقطرة ماء , ينظر إليها
: كيف أستطيع أفيك شيئاً مما لديك .. يا ابنة

الروح ورفيقتها لم يُخلق الذي يستطيع أن يردّ شيئاً
من فضلك وطهرك ونبلك

: يا ملاذ روعي وجسدها .. وجودك فضل لا يوازيه
فضل والنظر إليك تعبد ودرب إلى الخالق

لم يعد أحد يناديه إلا علوش ، وكانت خزنا رأس
الحرية في تأنيب من تسمعه يلفظ اسمه غير ذلك ،
والناس صارت تخاف من غضبه الذي لم يحدث
أبداً ، وهو ما زاد في خوفهم ، فكانوا يبتهلون ألا
يُخطئوا معه أو يزعل من أحد منهم ، وصاروا
يتهامسون فيما بينهم - الطاهرة نرجس ، التي لم
يعد أحد يتلفظ باسمها إلا ويسبقه بالطاهرة .. هل
يكلمها .. هل يتحدث إليها - علوش الصامت دائماً
، يمشي بهدوء ، ويرد على الناس بما قل ودل ،
الكثيرون سألوا اسماعيل الملاصق له أينما ذهب
وأينما حلّ (ألا تتحدثون ؟ ألا تتسامرون ؟)
ويجيب (بلى نتحدث ونتسامر في المفيد المهم
وأحياناً بدون كلام) أخوة اسماعيل وأخواته يقولون

- اسماعيل لا يضع الكون مجتمعاً مكان (اخوته
العشرة - ويقصدون علوش) ولا يقارنه بمخلوق ,
الدنيا بكفة وعلوش بكفة , ولم يعد يفرق الناس بين
أرض الشيخ منصور وأرض اسماعيل , زاد تعلق
نرجس ببيت اسماعيل وخاصة منصور الصغير
لشدة حبهم لعلوش والتي صارت تحب وتعشق
الهواء الذي يمرّ به . كان على علوش أن يذهب
كل ليلة ولو لبضع دقائق إلى بيت اسماعيل قبل أن
ينام الأولاد , يجلس معهم قليلاً ويعود , وأحياناً
كانت ترافقه نرجس , فيصير في بيت اسماعيل عيد
, وكانت خزنا كلما رأتها تتبهل لله
: يا رب ارزق نرجس الطاهرة أقماراً تضيء أيامنا
وليالينا

: يا خزنا الوفية النقية , أول مرة سمعت دعاء بأن
يرزقني ما يفرح قلبي , كان منك , واستجاب رب
العالمين لدعائك , أنا أثق بأنك مؤمنة ونقية والله
يستجيب دائماً لعبيده الأَطهار .

عادة تستيقظ نرجس قبل علوش متقصدة , تفك يديه
اللتين تطوقانها وتبتعد بضع أصابع بحيث تستطيع
تأمل وجهه حتى يستيقظ , فيبتسم ويسألها
: ماذا تقرئين ؟

هذا الصباح فتحت عينيها وجدته مستيقظاً
: ماذا تقرأ ؟

: تذهبين معي ؟ اشتقت لرؤية الشيخ حبيب

: أكيد .. أحبّ .. كم أحبّ أن أكون ثوبك
: وأنت ثوبي .. قبل أن أراك لم يكن يعنيني البرد
والمطر والشمس والحر ولم تكن تعني لي الثياب
شيئاً .. الآن بعد أن صرت ثوبي ولباسي .. بدونك
يذييني القیظ ويجمدني البرد
وكالعادة لم تجد ما تقوله فتكورت به
: سأذهب إلى أخي اسماعيل ليجد لنا فرساً تركيبين
عليها ونذهب
: يا حبيبي أذهب مشياً كما تذهب أنت
: لا .. الكروم بعيدة .. تركيبين على الفرس وأنا
أمشي بقربك
: يا حبيبي هذا صعبٌ عليّ جداً , أرجوك
: يا نرجس .. يا رفيقة الروح .. أنسي .. لا تفكري

بأي شيء آخر

: يا عمري .. ألا يسبب لي ولك إحراجاً ؟

: لا .. أبداً

ذهب إلى أبي أحمد مع بزوغ الشمس

: الله يصبحكم بالخير

: الله يسعد صباحك .. كيف نرجس ؟ هل بها شيء

? سألت خزنا بسرعة

: الحمد لله هي بخير أخي أبا أحمد , نريد الذهاب

لزيرة الشيخ حبيب , أريد أن تساعدني بإيجاد فرس

تقل نرجس فالكروم بعيدة ولا أريدها أن تذهب سيراً

, وندفع ما يريد صاحبها

صفت اسماعيل لحظة

: أذهب إلى ماجد سليمان أولاً .. متى تريدها ؟

: الآن :

: انتظرنى لن أتعوق :

غادر اسماعيل إلى بيت ماجد سليمان , ليس بعيداً
عن بيت أبي اسماعيل , فهو يقنتي فرساً جميلاً ,
يركبه في زيارته , سألت خزنا

: أخي علوش أمون عليك بشيء

: يا أم أحمد أنت أختي الوحيدة .. أنت تأمريني

أمرأ

: أرجو لا تقل ذلك .. أنا من يبتهل ليل نهار أن

تبقى راضياً عليّ , أخي لديّ ديكاً أريد أن أرسله

للشيخ , يذبحه ويدعو لنا , إن لم يكن ثقيلاً عليك

: تكرمى يا أم أحمد على رأسي وعيني

: إلهي يسلم رأسك وعينيك ويديمك لنا بركة وملاذاً

نادى من الخارج

: يا أبا حسن .. يا أبا حسن ؟

: اهلاً وسهلاً .. تفضل يا أبا أحمد

سلم اسماعيل على أهل البيت وجلس

: خيراً إن شاء الله يا أبا أحمد ؟ إن شاء الله

أستطيع تلبية ما جئت من أجله

: يا أبا حسن الحقيقة جئتك بطلب ليس لي .. بل

لأخي علوش ولزوجته نرجس

: يا لطيف .. لبيك يا أبا أحمد .. لو كان أحد

الأولاد لن تذهب إلا وهو معك

: بارك الله بك وبعيالك وبرزقك , أخي وزوجته

نرجس يريدان زيارة عمهما الشيخ حبيب والكروم

بعيدة , وجاءني أخي وطلب مساعدته بتأمين فرس

لتقلّ نرجس وهو سيدفع ما يريد صاحب الفرس ,
وبصدق فوراً خطرت ببالي فجنّتك

: يا أبا أحمد أنت تفضلت عليّ لأنك اخترتني لهذا
الثواب .. يا أبا أحمد طلبك مجاب , والأجرة , أن
يسمح هذا الخير أن أرافقه , فلا يجوز أن يجز هو
الفرس , أنا أجرها وأرجو ألا يبخل عليّ بهذا الأجر
وقام فوراً وارتنى ثيابه وأسرج الفرس وضبّ لها
عليقاً

: تفضل أخي أبا أحمد

كان الأولاد قد أمسكوا ديكاً أمرتهم والدتهم بمسكه
ليأخذه معه , قالت أم حسن وهي تدفع بالديك إلى
زوجها

: يا ماجد خذ معك هذا الديك للشيخ هدية واطلب

منه الدعاء للأولاد

أمام بيت اسماعيل بعد أن سلم ماجد على علوش

: يا سيدي أرجو أن تأذن لي أن أرافقكم .. أولاً

لأنني أخاف أن تحرن الفرس مع غير صاحبها

وثانياً أرى معكم الشيخ حبيب واكسب دعاءه لي

ولأولادي

: بارك الله بك وبعيالك وبرزقك , تفضلت يا أخي

.. كم تريد ؟

: عندما نعود أقول لك

: لماذا ليس الآن ؟

: أعاهدك أن آخذ الأجر .. وأعاهدك أن يكون

معقولاً .. تفضل

فُبيل الظهر وصلوا أول الضيعة سألت نرجس

: هذه الكروم ؟

رد علوش

: نعم هذه الكروم

: تكرم عليّ وساعدني كي أنزل .. أريد أن أصل

إلى بيت عمي راجلة

حضانها وأنزلها وهو يهمس لها

: أنت امرأة قلّ نظيرها

: وأنت رجل نادر الوجود .. أنت أعظم هدية أرسلها

الله لي

لم يستطع الشيخ حبيب القيام لاستقبالهم , قواه لم
تعد تسعفه على الوقوف وحيداً , استقبلتهم زوجته
زهرة , والجيران الذين لا يتركونهما على الاطلاق .
زهرة عجوز في السبعين من عمرها وربما أكثر ,

أنجبت للشيخ أربعة أولاد ذكوراً , لم تتجب إناثاً ,
إبراهيم ابنها البكر , غادر البلد من زمنٍ بعيدٍ
وانقطعت أخباره , ولحق به أخوه عبد الكريم , وهو
كذلك لا أخبار عنه , سلمان يسكن في ضيعة بعيدة
يعمل في التجارة وسمعته ليست جيدة ,وعبد اللطيف
يسكن في المدينة ويعمل في التجارة كذلك , أهل
الكروم يقولون أنهم منذ زمنٍ بعيدٍ لم يروا أحداً منهم
في الضيعة

: أهلاً يا ابنتي .. أهلاً يا ريحانة منصور وفاطمة ,
قدومك عيدٌ يا ابنتي .. أنت رايتنا النقية يا نرجس
عانقتها بحرارة وهي تبكي
: أنتم بركتي وتاج رأسي إلهي يستر آخرتكم ويديم
عليكم الصحة والعافية

: أهلاً وسهلاً أيها الطاهر النقي - سلمت عليه

وحاولت تقبيل يده - سحبها بسرعة

: استغفر الله .. استغفر الله العلي العظيم يا أم

إبراهيم

دخلا وسلما على الشيخ , وساعده وبناء على طلبه

أجلسوه على التكية , قال لنرجس وعيناه مغرورقتان

بالدموع

: قومي وامش أمامي أريد أن أراك وأنت تمشين

قامت ومشت وعادت وركعت عند قدميه , مسك

كتفها بيده النحيلة

: انهضي يا ابنتي .. انهضي .. يا ابنتي من

يكرمه خالقه أمام خلقه .. هو طاهر , وربّه يعلن

ذلك لكل خلقه .. هنيئاً لك يا ابنتي

ونظر نحو علوش

: لا تتسني من دعائك يا ولدي وأخي وزوج ابنتي

كان علوش مطرقاً صامتاً ,

توجهت أم إبراهيم بالحديث نحوه

: منذ الصباح أخبرني أنك جئته في المنام , وقلت

له أنك قادم , وأخبرتُ - وجالت نظرها بالناس

فوق نظرها عليه فأكملت - وأخبرتُ ولدي عبد الله

.. عمك يقول ان علوش ونرجس قادمان إليه اليوم

كانت المرة الأولى التي تخرج فيها نرجس خارج

شاطئ الزهور , إلا وهي طفلة , وأثناء مرضها ,

ذهبت أكثر من مرة إلى المدينة للعلاج . بعد أقل

من ساعة , امتلأت حارة الشيخ حبيب بأهل الكروم

, رجالاً ونساءً وأطفالاً , وكلهم حاول أن يقبل يد

علوش ولكنه لم يسمح لأحد .

همس الشيخ لتلميذه

: انتبه يا ولدي يا عبدالله

: يا سيّدي لم يبق في الكروم إنسان لم يأت , وكلهم

لا همّ لهم إلا ضيوفك وضيوف الكروم كلها ..

اطمئن يا سيّدي هم من يقوم بكل شيء لهم

ولضيوفهم , هم أولادك ولا حاجة لتشغل بالك بهم ,

عند الظهر وضع الطعام وأكل الجميع , بعدها

وقف عليشي ونرجس وأبا حسن مودعين , طلبوا

الصفح والدعاء منه , وودعوه وزوجته والناس الذين

احتفوا بهم كما لم يسبق من قبل .

رافقهم الناس حتى خارج الضيعة , وصلوا بعد

مغيب الشمس بقليل

: بارك الله بك يا أبا حسن , تفضلت وتكرمت ,

والآن مرني يا أخي

: يا سيدي اليوم أجري أجران , الأجر الأول أخذته

ووصلني وفاض علي وعلى أولادي , بقي الأجر

الثاني لو تتكرم علي وعلى أولادي به يا سيدي ..

الدعاء يا سيدي

: يا أخي أبا حسن .. بجاه صاحب الدعاء ..

يرزقك من فيض رزقه ونعمته وغفرانه ويكسيكم

بثوب الصحة والعافية , ويحرس لك الأولاد والعائلة

, ولكن يجب أن تأخذ أجرك

: لقد أخذت فوق ما أستحق

أقبلت نحوه نرجس

: بذهابك محوت عني الحرج .. إلهي يمحي عنك

الذنوب وببدالها بحسنات , و يكللكم بالصحة
والعافية , الله يبارك لك برزقك ويحمي لك العائلة
والأولاد تفضلت يا أبا حسن
: والله أنتم من تفضل .. إلهي يرزقك ما تتمنين
وتشتهين

في طريق عودة ماجد , نظرهما اسماعيل وخرنا
: الحمد لله على السلامة , إن شاء الله كانت رحلة
طيبة موفقة ؟ إن شاء الله لم تتعبي يا ست نرجس ؟
: الحمد لله .. الحمد لله .. يا ليتكم كنتم معنا ,
يلزمنا ساعات لأقصّ عليكم ما رأيت , إلهي يرزقنا
رضى ومحبة المؤمنين

في فجر العشرين من آذار , استيقظ علوش قبيل
الفجر بقليل , راح يمسح على وجه نرجس وهو ينزل

رأسها عن زنده بهدوء ، وقام وارتمى ثيابه ،
استيقظت نرجس لإحساسها بشيء من البرد ،مدّت
يدها لم تجد ملاذها ، فتّحت عينيها ، وجدته قد
ارتدى ثيابه ويجلس على (الدشك) ينظر إليها
: صباح الخير حبيبي .. ما بك أراك جاهزاً
للمغادرة

: صباح النور يا عمري .. كأنه كذلك .. أريد أن
أذهب إلى الشيخ حبيب
أيقنت أن شيئاً ما حدث أو سيحدث فإحساس
علوش لا يخيب ، لم تكمل أسئلة وصمتت قليلاً
وقامت

: ما زلنا قبيل الفجر .. لماذا استيقظت ؟
سأحضر الطعام .. فأنا لا أستطيع الأكل إلا معك

؛ ولكيلا أبقى طوال النهار بلا طعام نأكل سوية ،
ثم تذهب حيث تشاء

لم تكمل كلماتها وإلا بصوت طرق على باب الدار
: اللهم اجعله خيراً - وأسرعت إليه -

ضمها إلى صدره وصمتا برهة .. غمرت وجهه
وانسحبت وهي تقول

افتح حبيبي .. افتح .. سأجهز لكم الطعام
قام وفتح .. كان عبدالله

: الله يصبحك بالخير يا سيدي

: الله يسعد صباحك يا أخي عبدالله .. الشيخ ؟

: نعم يا سيدي

: فارقنا ؟

: عندما غادرت كان مازال ، قال لي (اذهب الآن

إليه .. ادفنوني قرب أخي منصور - لاحظ عبد الله

أن علوش جاهز -

: تفضل نأكل ونذهب

: لا وقت لدينا وخاصة أنني أراك جاهزاً

: لو لم تأت كنت أنا ذاهب الآن

ودّع نرجس قائلاً

: حبيبتي كأن الشيخ سيفارقنا جهزي البيت للأمر

قبل بيت اسماعيل قال لعبدالله

: اخي عبد الله .. نمر لحظة إلى بيت أخي أبي

أحمد

: كما تريد

دق على باب اسماعيل دقتين , بعد قليل خرج

اسماعيل

: الله يصبحك بالخير أخي أبا أحمد

: الله يسعد صباحك .. ما الأمر ؟

: عمك الشيخ حبيب كأن الله سبحانه وتعالى يريد

أن يفارقنا .. أريدك أن تخبر من تراه ليساعدك في

حفر القبر .. أخي أبا أحمد على يمين الشيخ

منصور تماماً

في الساعة السابعة وصل علوش وعبدالله , كانت

ديار الشيخ تغص بأهل الكروم , دخلا .. كان

الشيخ ما زال حياً قبلاً يديه وسأله علوش

: أجلسك قليلاً

أوماً له بالإيجاب

وبهدوء أجلسه ووضع يده خلف ظهره

: سيدي تشرب ؟

أوماً بالإيجاب

: عبد الله كأساً صغيرة من الماء

شرب بمقدار ملعقة , ونظر إليه .. وهمس له

: وجهني إلى القبلة

مدده وحرك الفراش بحيث صار باتجاه القبلة ,

: سامحنا واسمح لنا يا سيّدي

رفع يده وأسبلها وغادر

دبّ الهرج في الخارج وبدأ الرجال يتحدثون بأمر

القبر والدفن فخرج عبد الله

: يا أهل الكروم .. يا أهل الشيخ حبيب .. الشيخ

أوصى أن يدفن قرب أخيه الشيخ منصور وأوصى

أن يغسله ويكفنه ويصلي عليه زوج ابنته نرجس

: اعترض الناس - الشيخ حبيب يجب أن يبقى بيننا

, لن نقبل أن يكون إلا بيننا يطهر أرضنا ونتبارك
بزيارته

: يا أخي يا عبد الله .. ادخل لي الماء واتركوني
معه

: ألا تريد أحد معك .. يساعذك ؟

: بارك الله بكم جميعاً

عندما أنهى علوش غسله وتكفينه , كان وصل
الشيخ حسن والهرج مازال قائماً , فتوجهوا إليه
: يا شيخ حسن .. الشيخ حبيب عاش بيننا ..
تعلمنا على يديه وعشنا ببركته .. هل يجوز أن
يغادرنا ؟

: يا أهلنا في الكروم .. اسمعوني .. اسمعوني جيداً
.. الشيخ حبيب غفر الله له , غادرنا جميعاً , يا

أهلنا وصية الميت تحترم ولا يجوز نقضها , وأنا
أشهد بحضوري وعلى سمعي وبصري قال وهو يهم
بمغادرة بيت أخيه

(يا ولدي وأخي وصديقي وصهري علوش كما تحب
أن تُسميك رفيقة روعي نرجس .. هذي فلذة كبدي
الشيخ منصور .. مهجة الطاهرة فاطمة .. أمانة
عندك , وأنا واثق أنك ستحافظ عليها أكثر منا
جميعاً .. بقي لي عندك طلب قبل أن أغادر ,
والأعمار بيد خالقها .. بل وصية .. والوصية توكل
لأقرب المقربين , وأنت هو .. وصيتي أن تأتي بي
عندما أموت وتدفنني قرب أخي , وأن تصلي أنت
عليّ)

هذا ما قاله إن لم تخني الذاكرة حرفياً , فهل بقي

قول بعد هذا القول ؟

سكت الجميع وساد الصمت حتى خرج علوش
وبصوته الهادئ , وهو مطرق في الأرض
: أهلنا في الكروم .. لو كنت مكانكم لقلت ما قلت
ولكن أيها الأهل .. هذه وصية الشيخ ولا نستطيع
إلا أن ننفذها .. يا أهلنا .. شاطئ الزهور ليست
بعيدة كثيراً .. الروح خرجت إلى باربيها وبقي الجسد
الذي تبارك بها تسعون ونيف , وهذا الجسد سيبارك
الأرض التي سيحل بها أبد الدهر , فمن يريد أن
يزر مقامه فبالسعي إليه ثواب كبير .. أيها الأهل
الآن سأخرج جسده الطاهر إلى هنا ومن يود أن
يودعه هنا يمر قربة فقط .. أيها الأهل المرور فقط
 , وإلا تغضب روحه , ومن يود أن يذهب معه إلى

شاطئ الزهور ويودعه هناك ، فله ما أراه ، وله
عند خالقه الأجر والثواب

ودخل وحمل الجسد بين يديه مكفناً ملفوفاً بشرشف
أبيض ومدده على (الدشك) وسط التكبير والبكاء
، صار الناس يمرون أمامه وهم يبكون ويترحمون
عليه ، بعضهم حاول لمسه ، منعهم الشيخ حسن
الذي كان يقف عند قدميه وعلوش الذي كان يقف
عند رأسه ، عند انتهاء المرور أقبل الرجال ومعهم
خشبتين (نعش) ليضعوا جسد الشيخ فوقه وقف
أمامهم علوش

: أيها الأهل لا داعي لهذه ، من سيرافقنا فليتبني
كبر وحمل الجسد كمن يحمل طفله ، وغادر وسط
ذهول الناس وحيرتهم . مشت خلفه الكروم كباراً

وصغاراً رجالاً ونساءً ، لم يبق في الكروم إلا
العجائز غير القادرين على السير ، بعض البيوت
خلت تماماً من الناس ، حاول بعض الرجال
المساعدة بحمل الجسد ، كان يرد بمنتهى الهدوء
والمحبة

: أقسم لكم .. الجسد من يحملني ولست أنا من
يحملة

عند الساعة الثامنة خرج أهل شاطئ الزهور من
بيوتهم ، منهم من ذهب إلى المقبرة ومنهم من ذهب
إلى بيت الشيخ منصور ، نادى نرجس أحمد
: يا ولدي اذهب إلى أبيك وقل له عمتي نرجس
تريدك

دقائق وكان أبا أحمد أمام نرجس

: العوض بسلامتك يا ست نرجس و قدسه الله بقدسه

.. مريني

: أخي أبا أحمد الكروم ستأتي لتودع الشيخ حبيب ,

ويجب ألا يعودوا بلا طعام المسافة طويلة , اشتر

لنا ذبائح - وناولته صرة فيها نقوداً

: يا ست نرجس الناس جاءت بالذبائح والبرغل

وذبحت , والرجال هم من يجهزون الطعام , وأقسم

لك لا أعرف كيف أتت الذبائح والبرغل ولا من أتى

بها , بالرغم أنني حاولت ولكن لم أصل إلى نتيجة

كلهم يقول لم يأت بشيء

بكت .. وهي تقول

: هؤلاء أهلك يا شيخ منصور .. يا شيخ حبيب ..

من يستطيع ردّ جميلهم

: يا ست نرجس .. لا فضل لولد على أبيه هؤلاء
الناس كلهم أولاد للشيخ منصور والشيخ حبيب
رحمهما الله وقدس روحيهما
قراية الساعة الثالثة ظهر علوش وبين ذراعيه شيء
أبيض وخلفه مدٌّ من البشر , صار الناس يبحثون
من بعيد بين الناس القادمة عن النعش , وراح
يئلناس بـ ون بعضهم أين النعش ؟ هبوا

المقبرة ، الوحيدة بين كل هذه الجموع لم يفاجئها ما
رأته .. هي نرجس .. لأنها من القلائل في هذا
الكون من يعرف علوش .

فوق تراب القبر مدد الجسد ووقف أمامه وهو يدعو
الناس بصوت صااح لم يسمعه من قبل ، خاصة
من علوش الذي لا يُسمع له صوت

: أيها الأخوة .. ساووا صفوفكم للصلاة يرحمكم الله
أدهش الناس بصوته وبما قاله ، ثم دار من جهة
القدمين ونزل إلى القبر ، والناس تنظر صامتة ، ثم
حمله فوق راحتيه وقال

: مدّوا فوق القبر شرشفاً وغطوني

بعد قليل أزاح الشرشف قليلاً

: بارك الله بكم وعظم الله أجوركم ورحم الله أمواتكم

وصعد خارج القبر من جهة القدمين

: أيها الأخوة تكرموا وهيلوا التراب , ثم لقنه وتوجه

إلى الشيخ حسن

: تفضل يا سيّدي

اتجه الشيخ حسن نحو الناس

أيها الأخوة والأخوات كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً ..

من يحبّ ويجلّ الشيخ حبيب والشيخ منصور لا

يغادر حتى يأكل .. الطعام وافر والحمد لله , وثقوا

أن من يأكل ويترحم عليه له أجر كبير

تحول أهل الشاطئ جميعاً إلى خدمة ضيوفهم ولم

يسمحوا لأحد بالمغادرة قبل أن يأكل

أخذت نرجس زوجة عمها زهرة من يدها وبصحبة

النسوة إلى بيتها , حين غادر المعزّون , ولم يبق إلا

نرجس وزوجة عمها وعلوش قالت لها

: يا أماه ما رأيك أن ترتاحي .. أنت أرهقت اليوم

كثيراً , يجب أن ترتاحي

: قدس الله روح أبيك وعمك , ورحم الله البطن الذي

حملك أنت خير خلف لخير سلف .. الله عوضنا

بك وبزوجك عن كل شيء .. إلهي يستركم دنيا

وآخرة - ونظرت نحو علوش المطرق في الأرض -

يا ولدي يا علوش أنت مؤمن طاهر .. ادع ربك أن

ينظر إليّ فانا يا ولدي منذ زمان لا فائدة من حياتي

والآن لا فائدة ولا قيمة

: إلهي يكللك بستره ورعايته .. تصبحين بألف خير

: وأنت الخير والبركة

مددتها وغطتها

: إن احتجتِ أي شيءٍ اندهيني .. لحظة وأكون

بين يديك

: بارك الله بك يا ابنتي

: تصبحين بألف خير

: وأنت بألف خير

وقفت أمامه ونظرت كالعادة للعالي كي ترى وجهه

.. عينيه

: أيها النجم العالي .. شكراً لله بعدد ما خلق ..

شكراً له .. خلقتك وجعلك تاجاً لرأسي , وبك صرت

ملكة لا يدانيني في هذا الكون شيء , أنت أكبر

من أي قول وأكبر من أي كلام

رفعها على زنده فطوقت عنقه

: أنت مليكة هذا الكون بي وبدوني .. بنسبك

وشرفك وعقلك , ولا قيمة عندي , لكون أنت لست
فيه

: أيها الذي لا يشبهك أحد ولا تشبه أحداً ..

انزلني .. أنت اليوم تعبٌ .. اليوم سأعفيك حتى
من نومي فوق زندق

: لا .. لست تعباً أبداً ولولا فراق الشيخ ؛ لكان كأني

يوم .. ولن تنامي إلا فوقه ما دمت حياً

: دعنا نغير ثيابنا ونتمدد ونتكلم

مدّها زنده

: حملت الجسد من الكروم إلى هنا لم تتوقف لحظة

واحدة , الناس تعبت من العدوِ خلفك فارغة , وأنت

لم تتعب ؟ !

: يا نرجس .. أنا حملت فقط يدي .. بل جسد

الشيخ من حملني

: عندما وصلت كان مازال حياً ؟

: نعم .. وجلس بين يدي وسقيته آخر قطرة ماء

وهو من طلب مني أن أوجهه للقبلة .. نعم ودعني

وودعته

: أحس أنك تعرفهما منذ زمن بعيد ويعرفانك ,

أقصد أبي وعمي

صمتَ

نظرت إليه .. وغمرت رأسه

: كأن لا حق لي بمعرفة أكثر مما أعرف

مسح على شعرها وأغرق شفيتها في فمه , ثم نظر

إليها

: إن كان في هذا الكون من يجب أن يعرف فهو

أنت .. وسأخبرك لأنك أول زوجة وأرجو من الله أن
تكوني آخر زوجة كذلك .. سأخبرك وستكونين أول
بئر وأرجو من الله العلي القدير أن تكوني آخر بئر
أرمني فيه سري .. يا حبة القلب هذا القميص الذي
ترينني فيه , هو القميص الخامس الذي تبدله روحي
, أقصد هذه المرة الخامسة التي يبذل قميصها
خالقها وأعرفه

: تقصد أنك هذه المرة التي تُخلق فيها بثوب

الإنسان .. بالهيئة البشرية ؟

: نعم هذه المرة الخامسة التي أعرفها .. أقصد

أعرف أين كنت وأعرف أمي وأبي

: وفي خمسة أجيال , أقصد خمس مرات .. تعرف

أين كنت وكيف كنت ؟

: هذي المرة الخامسة التي أعرف فيها نفسي أين
كنت وأعرف أهلي والمكان , وغير ذلك العلم عند
الله

: برأيك عمي كان يعرفك ؟ أقصد هل كان يعرف
عنك كل شيء ؟

: يا نرجس .. الشيخ حبيب كان مؤمناً طاهراً
والمؤمن يرى بنور خالقه .. ما سألت عنه علمه
عند الله

: وأنت .. كنت تعرفه .. وتعرف الشيخ منصور ؟

صمت وأحال بصره عنها

مسحت بكفها الصغير فوق خده

: يا مهجة نرجس .. السؤال الذي لا يعجبك انسه ,

ولكن لا تشح بصرك عني أمت .. أتسعد روحي

وتقصّ عليّ حيواتك , أين كنت في الجيل الأول ؟

: ولدت في هرقليا البوننتية , هي مدينة جميلة

ساحرة على شاطئ البحر الأسود لأميرة المدينة

أماستريس , ووالدي هو ليسماخوس أحد قواد

الاسكندر الأكبر ذو القرنين وحارسه الشخصي

والذي صار ملكا بعد وفاة الاسكندر وتقاسم قواده

ملكه , كان اسمي أغاثوكليس والدتي أماسرة أو

أماستريس كانت زوجة لأمير هرقليا البوننتية وهي

مقاطعة على البحر الأسود وإحدى مقاطعات

الامبراطورية الأخمينية الفارسية والتي احتلها ذو

القرنين وأخضعها لسلطته وهي إحدى المقاطعات

التي أبقى على حكمها بعد أن أعلنوا الولاء له ,

ترملت الأميرة أماسرة باللغة الفارسية - أماستريس

باللغة اليونانية (والدتي) , قبل وفاة الاسكندر وكانت ذات شخصية قوية وذكاء وجمال فعينها أميرة على المقاطعة , بعد وفاة الاسكندر , تنازع قواد جيشه على الملك , تحالف ليسماخوس (والدي) معها وتزوجها وضمّ هرقليا البونتية للمقاطعات التي سيطر عليها رزقت منه أنا وولد آخر كان اسمه اوازيوس , عشت في كنفها أقصد أُمي لأنني قليلاً ما كنت أرى والدي فهو دائماً في ساحات القتال , وكان لي أخوان من زواجها الأول , كانا يبغضانني وأخي , بغضاً شديداً وانتبهتُ هي للأمر , فكانت حريصة ألا يستفردا بي وبأخي , كانت مشغولة دائماً بإمارتها , وبما يدور في بلاد الامبراطورية الممزقة وبالصراعات التي اجتاحتها بعد وفاة

الاسكندر , في الرابعة عشر من عمري صرت كما
ترينني الآن تقريباً , جسدي كان أكبر من عمري ,
حاولت التقرب من أخوي ؛ لأكسر جدار الكره الذي
كنت أحسّه في عيونهما , ولكن دون جدوى حتى
حدث شيء جعلني لا أقترّب منهما أبداً , كنت
مولعاً بالجلوس على شاطئ البحر والتأمل , إحدى
المرات وأنا عائد إلى القصر وجدت أخوي يمتطيان
جوادين ويربطان أخي الذي يصغرنى بسنتين بحبل
من يديه بسرج أحد الجوادين , يُبطئ فيقف أخي ,
يسرع الجواد فيقع ويجره جراً , كانا يقهقهان كأنهما
يجران عدواً لا أخاً , صرخت بهما , فاقترّب أحدهما
مني وحاول ضربي بقضيب يحمله , فسحبته من
يده فهاجمني بالحصان محاولاً دهسي , مسكت

الحصان من رسنه ولويت عنقه فسقط على الأرض
، هو والحصان هاجمني الثاني كالمجنون بالسيف ،
لحظتها انتبهتُ أن أمي كانت تصرخ به متوعدة ،
تفاديته وهو ينهال علي بسيفه ، فمرّ الحصان
بجانبي فلكرته بقبضتي بأقصى ما أستطيع في
خاصرته ، فسهل وترنح ووقع ، فأسرعت إليه
ومسكته من معصمه وزنده وضغطت بقوة فسقط
السيف من يده ، فالتقطته وكانت والدتي قد وصلت
، ناولتها السيف ومسكته من صدره ورفعته وقلت له
.. هذه المرة سأعفي عنك كرمي لهذا الرحم الذي
ربينا به ، في المرة القادمة لن اضربك بالسيف كما
حاولت أنت الآن ، بل سأطق عنقك بيدي هذه
وألقيته كالخرقة ، كان أخوه مازال يحاول القيام من

تحت الحصان ، ذهبْتُ باتجاهه ، مسكت بذيل
الحصان وأزحته عنه ، رفعته ليقف فلم يستطع
الوقوف فتركته فسقط مرة أخرى ، فحذرتة .. كما
قلت لأخيك .. إن كررتها سأطقّ عنقك كما فعلت
بحصانك ،

بعدها لم يقتربا منا أبداً .

نُقل لوالدي الخبر فأثنى عليّ وأخذنا مع والدتي إلى
ليسيماخيا التي شيّدها بنفسه وكانت بمنتهى الجمال
، تشرف على شبه جزيرة ، بقينا هناك حتى تزوج
ابنة بطليموس الأول الأميرة أرسينوي المصرية ،
ليمكّن تحالفاته ، غضبت أُمي غضباً وقررت
المغادرة إلى هرقليا ، قبل أن تغادر ، رجوتها أن
تبقى لأنني كنت أعرف كم كانت تحب والدي قالت

: والدك عندما تزوجني , كان يقول (بك تزوجت
كل نساء الأرض) ولذلك لا أقبل أن يجمعني مع
امرأة أخرى , ليست الأميرة أماسة من تشارك امرأة
برجل

قلت لها

: أنا أعرف أنك تحبينه

: نعم أحبه .. كنت أتوقع أنه أخذ من قائده

الإسكندر الأكبر بعض من خصاله وفروسيته

: ألا يشبهه ؟

: لم يُخلق من يشبه الإسكندر يا ولدي .. يا ولدي

عندما وصل الإسكندر إلى بابل , هرب داريوش

تاركاً نساءه ووالدته أسيرات , أمر الإسكندر أن

يبقين في قصرهن كما كن بحراسهن وخدمهن وكأن

شيئا لم يكن .. يا ولدي .. عندما مات الإسكندر
من شدة حب الملكة سيسيقمبيز والدة داريوش
للإسكندر رفضت الطعام حتى ماتت حزناً عليه ..
يا ولدي لا أحد يشبه الاسكندر
أمي كانت أنثى فائقة الجمال , أميرة في كل شيء
إلا بطبعها , كانت لبوة , زواج أبي من غيرها جرح
كرامتها , وخاصة أن زواجه كان زواج مصلحة ,
أبي كان متعلق بي وبأخي جداً , كان كلما رأني
يقول لي (أه يا ولدي لو عاش الاسكندر ورآك) ,
زوجة أبي الأميرة أرسينوي كانت تعرف مدى تعلق
بنا

أنجبت زوجة أبي أرسينوي ثلاثة أولاد وبنت ,
بطليموس , ويوسيماخوس وفيليب وأرسينوي الثانية ,

ولكي تضمن العرش لأبنائها , ولتقتها إن ذلك
مستحيلاً وأنا حي , تأمرت مع بعض قواده المقربين
ووجهت لي تهمة الخيانة والتآمر مع سلوقس الأول
للاستيلاء على الحكم , حُكم عليّ بالإعدام وقتلتُ
مظلوماً

: أما زلت تذكر المنطقة والناس ؟!!

: كما أراك .. ما زلت أذكر أمي وأبي جيداً , وكل
من عاشرتهم , والأماكن , وإلى الآن أعرف اللغة
الإغريقية والفارسيّة , لغة أمي وأبي

: والجيل الثاني ؟

: ما رأيك أن توجلي ذلك للغد وتتامين الآن ؟

فالفجر دنا وغداً لديك عمل طويل

: يا جنتي وملاذي .. أمر صعب , ولكنني سأنتظر

, بالرغم أنك طيّرت من عينيّ النعاس ,
انقضى يوم آخرَ على رحيل الشيخ , وانتظرت
نرجس المساء بفارغ الصبر , سألت علوش
: حبيبي سأضع الطعام لنأكل مع زوجة عمي
: أرى أن تجلسي وحدك معها وتطعميها , قد

تستحي مني

: كما ترى

قدمت لزوجة عمها الطعام وجلست بقربها

: تفضلي يا أماه .. لنأكل شيئاً

: يا ابنتي لا نفسي لا بطعام ولا بشراب

: سنأكل سوية بقدر ما تستطيعين

تحت إلحاح نرجس أكلت قليلاً وحمدت الله

: هل تأمريني بشيء يا أماه , قبل أن أذهب ؟

: بارك الله بك يا ابنتي .. إلهي يسترك دنيا وآخرة
كما سترتنا .. يا أبنتي برأيك هل سمع أولاد عمك ؟
أنا آسفة على السؤال

: العلم عند الله يا أماه , ولكن إن أحببت أرسل غداً
من يخبرهم

: لا يا ابنتي .. هو سؤال خطر ببالي .. تصبحين
بألف خير يا ابنتي
: وأنت بألف خير

أغلقت الباب خلفها وخرجت إلى البيت الثاني

: اقسم لك أنني اشتقتُ إليك .. ألم تشتق ؟

: يا نرجس .. بالرغم من أن روحك لا تغادر

شغاف القلب .. ولكن عيناَي دائماً وجدتَا لرؤياك

وضعت طبق القش وفيه الطعام

: تفضل أيها الهواء الذي جعلني أحيا .. أيها الهوى

الذي جعل لحياتي قيمة ومعنى

تأملها ملياً وغمرها وهو يقول

: يا رفيقة الروح والجسد لا شهية لي للطعام

: أنت منذ الصباح بلا طعام .. سأطعمك بيدي ..

فهي تفتح شهيتك

أكلا قليلاً جداً , وقاما إلى فراشهما وغابا في وجدٍ لا

ينقطع

تكورت في حضنه وأمالت رأسها قليلاً فوق زنده لتراه

وهو يقصّ

: وقفت أمس عند الجيل الثاني

: تنتظرين ؟

: بشوق

: ولدت لفلاح طبراني عفيف كريم , كان اسمه
بطرس باجس , وأمي كان اسمها أوسىلا , على
ضفاف طبريا الجميلة الوادعة كنا نعيش , كانت
البيوت تنتشر حولها كالعقد في العنق .. أذكر أن
بعض البيوت كانت تلامس شط البحيرة ومنها بيتنا
وهذا ما كان يسبب لأمي الرعب الدائم , خوفاً أن
يسقط أحد أبنائها في البحيرة , كان والدي يزرع أمام
البيت أوتاداً كحاجز بيننا وبين الماء والأولاد كانوا
يعتادون على البحيرة , وأغلبهم ومنذ سن مبكرة جداً
كانوا يتعلمون السباحة ويجيدونها , بيتنا كان بسيطاً
بل فقيراً , والدي كان يزرع الأرض ويربي الأغنام
والماعز والبقر والجاموس والدجاج والبط والوز
والحمام وخلايا النحل التي كانت تصنعها والدتي

من الطين والقش كان المكان جميلاً ساحراً .. كان
يذكرني دائماً بهرقليا على شاطئ البحر الأسود ,
مع الفارق الهائل بين بيت الأميرة أماسة -
أماستريس - وبيت الفلاحة أوسىلا , كانت أمي
أماسة جميلة جداً وأمى أوسىلا , كانت جميلة جداً
كذلك , الفارق بينهما فقط في لون الشعر ولون
العينين والطبع , أماسة كانت شقراء وعيناها
زرقاوان وكانت كاللبوة كما قلت لك , وأوسىلا كانت
بيضاء وشعرها أسود وعيناها سوداوان , وكانت
كالريم وادعة , وكان والدي ليسماخوس , رجلاً
ضخماً جداً , قوياً جباراً وفارساً شهماً , وكان يقدر
الإسكندر , وسمعته كثيراً يتكلم عنه ويقول (الإله
زيوس هو أبُ الإسكندر , وليس فليب الأعور ,

والملكة أولميبياس عندما أنجبت الإسكندر كانت
عذراء ولم يمسهها إنسان (ويقال كان لأبي قرنان
كالإسكندر ولكنني لم أرهما , والدي بطرس كان
عكسه تماماً , رجلاً متوسطاً في كل شيء , متوسط
القامة .. متوسط الحال , لطيفاً , جذاباً , أنيساً ,
ومن أوائل الذين صدّقوا وآمنوا بيسوع المسيح ,
كنتُ الولد الخامس في الأسرة , أخي البكر يعقوب
يليه يوشع يليه شمعون يليه سيرينا , وأنا كان
اسمي إليا , ولدت قبل صلب وقيامه السيد المسيح
بعامين , العائلة كلها كانت موسوية قبل مجيء
يسوع , بعضهم آمن به ومنهم والدي ووالدتي وعمي
شمعون وزوجته استر , ولكن سرّاً , والأغلبية
ناصبوه العداة , بقي والدي وعمي شمعون يكتمان

الأمر خوفاً من القتل أو الذبح ، الذي شاع في تلك
الأيام حتى في العائلة الواحدة ، بين المصدقين
المؤمنين بالمسيح والمكذبين له ، حتى كان ذلك
اليوم ، عشية عيد الغفران اليهودي ، دخل بيتنا رجل
لاجئ محتم من غوغاء كانوا يطاردونه ليقتلوه ، لأنه
أثنى على السيد المسيح ، واعتبروا أنه يبشر ،
وأذكر كيف خبأه والدي ، حيث جعله ينام على
الأرض ووضع حوله الوسائد وضع فوقه فراشاً ،
وقال لنا اجلسوا فوق الفراش ، دخلوا ونكتوا البيت
نكتاً وفتشوا بيت الدواب ، ولكن الله أعمى عيونهم
وقلوبهم عنه ولكنهم لم يصدقوا والدي وعمي وقالوا
لهما

: نحن نعرفكم أنتما منذ سنين لا تشاركون اليهود

في أي شيء ، أنتما صدقتما ذلك الكذاب وكفرتما
بدينكم

غادروا وهم يتوعدون ، وكان بينهم اثنان من
أعمامي . أدرك والدي وعمي أن وجودنا في طبريا ،
صار في خطر ، وقررا المغادرة في أقرب فرصة ،
ذهب والدي وعمي إلى المجدل في الشمال ، فقد
كان حال المؤمنين بيسوع في المجدل أفضل ، باع
والدي وعمي كل شيء لأعمامي واشتريا في
المجدل ، ورحلنا صبيحة أحد أيام كانون الثاني ،
بكينا جميعاً ، وخاصة أنا .. فقد كنت أحب بيتنا
جداً ، لم أستطع تقبل أن أرحل عنه ، كان الجو
بارداً جداً والغيوم الموشحة بالأزرق تملأ الفضاء ،
ساقوا المواشي وأركبوني فوق ظهر الحمار ، لأنني

كنت قبل الرحيل بيومين مريضاً ، زوجة عمي
استر ، كنتُ شغلها الشاغل فكانت دائماً بجانبني
تتحسس يدي وهي تقول لعمي

: يا شمعون إليا مريض منذ يومين والسخونة لا
تفارقه

: ويأتي يلمس يدي ووجهي

: يا استر .. أنت تبالغين هو بخير إن شاء الله
عمي وزوجته لم يرزقهما الله أولاداً فمنذ وعيت و أنا
أرى نفسي في حضنهما ، وأذكر أنني كنت في
منتصف الليل عندما أصحو ولا أجد نفسي في
حضن استر .. أبكي .. وكان أبي يحملني ويدق
عليهما الباب وهو يقول

: يا أستر .. عندما تعودين إلى بيتك لا تتركي هذا

الولد عندنا .. أنت تعرفين إن استيقظ ولم يجد نفسه
في حضنك لن يدعنا ننام
وكانت تأخذني وهي تدعو على نفسها لأنها تركتني
, وتعتذر منه وهي تلفني وتقبلني , عمي شمعون
كان يضعني فوق كتفيه ويدور بي كل طبريا , وهو
من اهتم بكل شيء يخصني .. هو من كان يأخذني
إلى بيت الكاهن الذي كان يعلم الأولاد القراءة
والكتابة والحساب ويحفظنا التوراة , كنت أعتقد أنهما
والداي , بعد عمر الثلاث سنوات حتى صرت أدرك
أنهما عمي وامرأة عمي , حتى أخوتي كانوا يعتبروني
طفلهم المدلل , وكانوا يتسابقون للعب معي
وارضائي وتنفيذ كل رغباتي , وكنت أحسّ بذلك ,
لذلك كان تعلقي بهم شديداً

في بداية الطريق كنت أحس أنني أكاد أختنق من
النار التي تهبُّ بي وخاصة في أحشائي , بالرغم
من بدء تساقط الثلوج , التي صارت تغطي الدرب
الضيِّق الذي كنا نسير عليه , ظهرت علينا
المجدل .. صارت قريبة , وأنا تبددت النار المتقدة
بي وحلّ محلها البرد .. البرد القاتل , صار كل
شيء بي يرجف وأخذت أسناني تصطك , صرخت
استير و أمي , أوقفوا الحمار وحاول أبي أن
يحملني فرفض عمي , مسك بيدي وحملني على
ظهره وقال
: نفوا رأسه بكوفيتي واربطوه على ظهري و ضعوا
فوقه عباءتي
لفّ يديه خلف ظهره ليسندني وتابعوا , آخر ما

سمعته .. صوت نحيب أمي وهي تقبلني وتهمس (يا ربي .. دخيلك .. وجهه كالجمر) وصوت استير (يا يسوع دخيلك .. يا يسوع دخيلك)

طوقت نرجس وجهه

طوقها وهو يسألها

: لماذا تبكين يا نرجس .. أنا أبوح لك بما لم أبح به لمخلوق .. لتبكي !؟

: والله لا أدري .. سامحني يا عمري .. سامحني

راح يمسح على شعرها حتى أحس أنها غفت

انقضى يوم آخر على رحيل الشيخ حبيب , ولم

يظهر أي من أبنائه , كانت أم إبراهيم تنتظر أن

يأتي أحد ما , ويخبرها أن أبنائها جاؤوا لتقبل العزاء

بأبيهم , نرجس كانت تقرؤها جيداً , هذا المساء أتت

بطبق الطعام ووضعتة أمامها ودعت علوش

: تفضلا .. تفضلا على ما قسم الله

: والله أنا متخمة .. سامحيني يا ابنتي

: سنأكل سوية يا أم إبراهيم .. تفضلي

: يا ولدي .. لا شهية لي للطعام ,احس أنني

متخمة

: على قدر ما تستطيعين .. تفضلي

أكلت بضع لقمات وحمدت الله وترحمت على

المؤمنين وذكرت الشيخ منصور والشيخ حبيب

وقالت

: يا ولدي يا علوش .. لا تتسني من دعائك .. أن

يمنّ الله عليّ بالرحيل فأنت قريب منه

: إلهي يكللك بستره يا أم إبراهيم .. الأعمار بيد

صاحبها .. أنت بيننا خيرنا وبركتنا ,نحن أولادك

ولن تكوني إلا معززة مكرمة

: يا ولدي .. أيها الطاهر .. أمس سألت ابنتي

نرجس واليوم أسألك .. ألم يسمع أبناء الشيخ حبيب

؟ أنا لا أسألك كرمى لهم .. أنا أتمنى ألا يقول

الناس الشيخ حبيب لم يُخلف

: يا أم إبراهيم .. كل الناس تعرف من هو الشيخ

حبيب .. يا أم إبراهيم لا ينفع الإنسان لا مال ولا

بنون .. ينفعه عمله .. يا أم إبراهيم .. أنا ونرجس

أولاد الشيخ , وأنت أمُّ لنا .. ألا ننفع يا أماه

: والله أنتما خير خلف لخير سلف .. الحق معك يا

ولدي .. سامحني يا ولدي

ودّعاها وذهبا إلى البيت الثاني

: عندما تشرق الشمس أبتهل ألا تتعوق , فأنا أحب
الليل أكثر -

شوقي لأغرق بك

: لم أبتعد كثيراً عن طبريا , فقد ولدت في
الاسكندرية - المدينة التي تمنيت في الجيل الأول
أن أزورها وأستنشق عبير الأرض التي ضمت جسد
الاسكندر الكبير , الذي آمنت به , وعرفته على
حقيقته - لأبٍ مؤمنٍ طاهرٍ هو ليونيدس
أوريجانوس و أمٍ مؤمنة نقية صافية هي ماريا
جاوريوس , اسرتنا سورية مقدسيّة , هرب جدي مع
أبيه واخوته بعد الصلب والقيامة بعشرين سنة إلى
الاسكندرية , بعد أن اشتدّت ملاحقة انصار يسوع
المسيح وقتلهم في أورشليم .. أبي كان مؤمناً وذا
عقلٍ متقد , قارئاً جيداً للناس , تعرف عليّ مبكراً
جداً .. أقصد قرأني منذ ولادتي فكان يعاملني على

أنني صديقه ومن جيله وأحياناً كنتُ أحسّ أنه يجزم
أنني أفضل منه , وهذا ما كان يؤلمني جداً .. كان
يقف أمامي وينظر إليّ بحبٍ جارفٍ ثم يجثو أمامي
ويمسك كلتا يدي ويقبلهما وهو يقول

: شكراً يا رب رفعت مقامي وأكرمت وجودي بهذا

الملاك الطاهر

بعد أن كبرت قليلاً تمنيت عليه ألا يفعل ذلك ,
واستجاب لي , ولكن شغفه بي كان يزيد كل يوم
ويقول لأمي

: يا مريم هذا الملاك فيه من نور يسوع ما ليس

بغيره

والدتي ماريا .. أو مريم .. كما كان يناديها والدي

, كانت سيّدة جميلة , أنيقة مؤمنة , من عائلة

اسكندرائيّة .. أمّ حنونة متفانية أنجبت بعدي ستة
أولادٍ , الاسكندر .. يصغرنى بعامين , بعده
جوريس , يوحنا , جوزيف , وأصغرنا مريم التي كان
عمرها خمس سنوات عندما أستشهد والدي .
كنت رفيق والدي منذ كنت طفلاً إلى أي مكان
يذهب إليه , وبشكل خاص مدرسة الاسكندرية حيث
تعرفتُ على القديس " اكليمنضس " المعلم , وأذكر
تماماً المرة الأولى التي رأيته فيها , وكان عمري
ست سنوات , وأذكر ذهوله عندما عرف أنني أجيد
القراءة والكتابة والحساب , عندما رأيت دهشته ,
أخفيت عنه إجادتي للفارسية والآرامية واليونانية
والعبريّة , وصرت صديقه الصغير , كما كان
يناديني دائماً , صارت مكتبة الاسكندرية الضخمة

والتي كانت تحتوي على عددٍ كبيرٍ جداً من نفائس
الكتب في مختلف المجالات صديقنا المشترك و
مقرّنا الدائم ، معرفتي باللغة اليونانية والفارسية
والآرامية والعبرية من الجيل الأول والثاني ساعدني
جداً ، فقرأت كبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء
بلغتهم الأم ، قرأت العهد القديم باللغة العبريّة
والأناجيل بلغتها الآرامية ، بدأت بإزاحة الستار شيئاً
فشيئاً عن السطحية في تفسير العهد القديم
والأناجيل بالشروحات التي وضعتها لها وكذلك
الفلسفة اليونانية والفارسية وخاصة السورّيّة ، والتي
وجدتُ بالدليل القاطع أن كل ما كتب بعدها هو
شرح وتفسير لها ، وأغلب الأحيان كان شرح سيئ
وتفسير أسوأ ، وعلى الأغلب كان سببه الجهل

باللغة الأم الآرامية , ونتج عن ذلك تفسير مغاير
لِمَا أراد العالم , ورحت أضع كل شيء في موضعه.
بعد استشهاد والدي على يد سبتيموس ساويرس
ورجاله , والذي كنت أعشق شديد العشق أن أكون
قربه وأنال هذا الشرف , ولكن رجاء أمي وتمسك
أخوتي بي منعني من ذلك , وأذكر ما قالته أمي
: يا ولدي .. أليس الاعتناء بهؤلاء اليتامى ,
وتأمين لقمة العيش لهم , من جليل الأعمال ؟ أليس
نوع من أنواع الفداء والتعبد والعبادة ؟
ما قالته جعلني أخجل من نفسي , وأنا حامل راية
ترك القشور والسطح والسطحية والدخول إلى
الجوهر , أذهب وأترك هؤلاء الأطفال إلى المجهول
, وهم أمانة في عنقي , وأمامي درب طويل ما زلت

في بدايته ، أفتح أعين الخلق إلى الخالق ما
استطعت ، وهذا فداء وعبادة .
صودرت كل أملاكنا ، لم يبق لنا شيء على
الإطلاق ، صرنا نحتاج أبسط مقومات الحياة
اليومية ، أخوة صغاراً وأمّ مكسورة ، التجأت للسيدة
كالبيرا التي التقيتها أكثر من مرة في المدرسة وفي
المكتبة ، هي سيّدة غنيّة وكريمة رحبت بي
واقترحت عليّ أن يكون بيتها مركزاً للإرشاد والتعليم
، ولكنني لم أستطع البقاء طويلاً بسبب ضيوف
السيدة الذين لم أستطع الوصول معهم إلى أي
نتيجة ، وتمسكها هي بهم ، فقررت الرحيل وقررت
تدريس الأدب والنحو للجميع ، فأستطيع بهذا إيجاد
مردودٍ بسيطٍ نعيش منه ، فجاءني عامة الناس على

اختلاف انتماءاتهم , فرصت شيئاً فشيئاً أشرح
الدروب التي سلكتها البشرية من السوري إلى
اليوناني والفارسي واليهودي حتى أصل إلى
المسيحية , بذلك اقتربت من الجميع , وكانت
سعادتي لا توصف عندما انتقل إلى درب يسوع ,
الكثير ممن حضروا دروسي , ومنهم بلوتارخس
الذي جعله إيمانه العميق الصادق الخالص يصل
إلى ما وصل إليه والدي , ونال إكليل الاستشهاد ,
وكذلك أخوه هيراقليس الذي صار فيما بعد أسقفاً
ظيماً لكنيسة

طلبي ، وكلفني بإدارة المدرسة ، أوقفتُ كل شيء لا
يخص المدرسة وكرّستُ وقتي بالكامل للعمل الجديد
الذي أوكل إليّ كمعلم للموعوظين ومن بين هؤلاء
تخرج بطاركة وأساقفة ومعلمون ، كنت حينها قد
أكملت الثامنة عشرة من عمري، وكان الكثير من
التلامذة أكبر مني سناً ، عملت بأقصى ما أستطيع
لزرع ، ليس الإيمان فقط ، بل مفهوم الحياة
الحقيقية ، وتهيئة الناس ؛ لقبول إكليل الاستشهاد
والفداء ، وعملت جاهداً لتعميق الفكر الدراسي
التحليلي ؛ لذلك قسّمت التلاميذ إلى فصلين ،
أوكلت لهيراقليس تعليم المبتدئين المبادئ الأولى
للتعاليم المسيحية ، و كرّست وقتي للمتقدمين في
علم اللاهوت والفلسفة ، وأفردت جلّ اهتمامي

لترسيخ منهج القراءة البحثية التحليلية العميقة ,
والابتعاد عن القراءة السطحية واعتماد منهج التفسير
الرمزي - المجازي للفكر , وخاصة للكتاب المقدس
, كنت أؤكد لهم , بأن الصلاة هي التعمق بمعرفة
الله .. هي الطريق لفهم كلمة الله , وإن الاقتراب من
نور الله هو بالحفاظ على البتولة , هذه الكلمة
تحديداً كانت أحد أسباب مأساتي القادمة .. لفهمهم
السطحي لها , فحتى الكهان استخدموا ظاهرها
الحرفي ومنهم الاسقف ديمتريوس الذي اشاع عني
أنني خصيت نفسي , فبدل فهم الكلمة بمعناها
الحقيقي وهو الطهارة , أخذوا المعنى السطحي
فحصروه بالفرج , وكنت دائماً أؤكد لتلاميذي , أن
البتولة هي الانسحاب من بهرجة العالم الدنيوي

والعيش فيه بأقصى ما نستطيع من البساطة التي
تجعلنا نمر مرور الكرام في هذه الدنيا , وبذلك
نحفظ بتولتنا , فالسعي وراء الترف والمجد البشري ,
هو الدرب التي تلطخ طهارتنا وتبعدنا على المجد
الإلهي

زرت روما بدعوة من اسقفها , بعد عودتي منها ,
أحسست بشيء من البغض والحسد من قبل
الاسقف ديمتريوس . بعد مهاجمة الامبراطور كراكلا
الاسكندرية , نهبها وقتل وفضّع وأغلق مدارسها ,
رأيت الفرصة مواتية فغادرت الاسكندرية إلى سوريا
وهناك استقبلني تلميذاي الكسندر أسقف أورشليم
وثيؤكستوس اسقف قيسارية ودعانيا لشرح الكتاب
المقدس في حضرتهما , وعندما وصل الخبر

لديمترىوس جن جنونه وأرسل كتباً إليهما مخاطباً
إياهما بشبه توبيخ , وحجته .. أنه لا يجوز لكاهن
أن يعظ بحضرة الاسقف , رفضاً ما ذهب إليه
برسالتين جوابيتين , فأرسل إليّ مستدعياً , فعدت
إليه حفاظاً على الكنيسة من أي انشقاقٍ جديدٍ ,
سارت الأمور بحذر شديدٍ مني , لأنني أيقنت أن
ديمترىوس يتحين الفرصة للنيل مني , مع بداية
حكم الامبراطور الجديد ساويرس استدعتني والدته
بالاسم لشرح بعض العضلات , وكى لا أوسع
الشرح ذهبت إلى ديمترىوس معتبراً أن الخطاب
موجهاً للأسقف , وهو من يحدد من سيذهب إلى
والدة الامبراطور , فشكرني وكلفني بالذهاب , بعد
عودتي بفترة قصيرة من انطاكيا , نشبت خلافات

حادة في بعض الكنائس اليونانية ، فاستدعاني
وزودني بتقويضٍ خطي منه لحل الخلاف ، في
طريق عودتي مررت على البلاد التي أحبها
وأعشقها رحب بي الاسقفان الكسندر وثيؤكتستوس ،
وفي قيصرية قرر الاسقفان تسييمي ، رغم
معارضتي الشديدة وشرحت لهما مخاطر هذا الفعل
ولكنهما أصرا وقال الأسقف ثيؤكتستوس أمام
الكهنة

: لا يليق بمرشدنا ومعلمنا أوريجينيس ، لا يليق بنا
وليس به ، أن يبقى بدون رتبة كنسية بل وأعلى رتبة
، بعد كل الذي بلغه من المستويات الروحية
والدراسية ، أن يبقى دوننا رتبة ، ولا يجوز أن يقف
الاستاذ خلف التلميذ ، وبهذا نتجنب رسائل جديدة

من ديمتريوس ومن غيره

اعتبر ديمتريوس هذه السيامة أكثر خطأ من التصرف السابق ، وخرجت كل أحقاده دفعة واحدة والتي لم أجد لها مبرراً منطقياً أبداً سوى الحسد والغيرة ، وبدل أن يتوجه إليهما ، توجه إليّ بالتقريع برسالة منه إليّ (أنت قبلت السيامة من أسقف آخر غير أسقفك و دون أخذ الأذن) وذهب إلى التشهير بي برسائل إلى الأساقفة (أوريجينس خصى نفسه ، وهذا يحرمه من نوال درجة كهنوتية) مستندا على ما قلته عن (البتولة) وهي بنص ، مفسراً ذلك بأنه إقرار مني بخصي نفسي ، ودعا لانعقاد مجمع من الأساقفة والكهنة في الإسكندرية وتحت ضغطه رفض المجمع قرار اسقفي القدس وقيسارية ،

واكتفى المجمع باستبعادي عن الإسكندرية , لم
يرض ديمتريوس بهذا القرار فدعا لمجمع آخر من
الأساقفة فقط , مستبعداً الكهنة ليضمن القرار الذي
يريد , فكلما ضاقت الحلقة كلما استطاع الضغط
والتأثير أكثر , فخرج الإعلان ببطلان مرتبتي
الكهنوتية , واعتباري لا أصلح حتى للتعليم , وأعلن
عن وجود بعض الأخطاء اللاهوتية في كتاباتي ,
وكتب القرار وأرسله إلى كل الأساقفة وأعلن الحرم
عليّ

نتيجة رسائله , دعا الكثير من الأساقفة ومنهم
اسقف روما إلى مجتمعات أيّدوا قرار ديمتريوس ,
فيما عدا أساقفة القدس وقيسارية والعربية و آخائية
وفينيقية و كبدوكيا الذين رفضوا القرار , بعد كل

هذه الأحداث ، صرت مضطراً للدفاع عن نفسي
ضد الاتهامات الخطيرة التي سبقت ضدي ،
فوجهت رسائل إلى كل الأساقفة بما فيهم ديمتريوس
،ولكل الأصدقاء والتلاميذ في الاسكندرية ، وكل
البلدان ، بينت فيها التزوير والتحريف الذي قام به
ديمتريوس ومن معه ، على بعض النسخ من كتبي
، ونوهت للجميع بوجود نسخ أصلية من كل كتبي
عند الكثير من القساوسة والكهنة والأصدقاء
دعاني الأسقف ثيوكتستوس لإنشاء مدرسة للاهوت
في قيسارية رأسها لمدة عشرين عاماً ، تخرج منها
الكثيرون وعلى رأسهم القديس غريغوريوس العجائبي
، خلال إقامتي في قيساريّة كان لي زيارات للكثير
من الكنائس وأهم تلك الزيارات ، حضوري المجمع

العربي لمناقشة وجهة نظر الأسقف بريوس في
شخص السيد المسيح , وقوله إن الله أقنوم واحد .
كان انعقد قبل ذلك مجمع حاول الاساقفة ثني
الاسقف عن رأيه ولكن دون جدوى , فقرر الاساقفة
عقد مجمع أوسع ودعوني لحضوره
سألته : أنت تقول إن الله أقنوم واحد ؟

: نعم

: هل هناك كلمة تقال بعد كلمة المسيح ؟

: لا

: ألم يقل السيد المسيح (أنا نور العالم من يتبعني

فلا يمشي في الظلمة) ؟

: بلى

: هل نور الشمس هو الشمس نفسها ؟

: لا

: هل هو غيرها .. أقصد لو لم تكن هل كان هناك

نور ؟

: لا

: وهكذا الله ونوره

طلب الخلوة بي , اختلينا لمدة ثلاث ساعات , خرج

بعدها إلى المجمع

: أنا أتراجع عن كل ما قلته

زارني في مدرسة قيسارية عدة مرات وبحضور

الاسقف ثيؤكتستوس والاسقف الكسندر ، عرفني

كما تلاميذي ودافع عني مثلهم

مات ديمتريوس وتولى الكرسي التلميذ الوفي

هركليس (البابا ياروكلاس) وفور جلوسه على

كرسي الأسقفية بالإسكندرية ، والذي أطلق عليه
الناس لأول مرة في تاريخ الكنيسة (البابا) لقربه
ومحبة الناس له ، أرسل إليّ خطابًا، يرفع عني
الحرم الذي وقَّعه عليّ ديمتريوس، ورجاني أن أعود
إلى الإسكندرية لإكمال ما بدأتُه ، وكان هو أحد
شهودي على ما فعلت وأنجزت ، فكتبْتُ له معذراً
مشيراً إلى أن مدرسة الإسكندرية قد ذاع صيتها،
واستقرت أوضاعها، وكثر عدد أساتذتها العظماء،
بينما المدرسة اللاهوتية التي افتتحتها في قيسارية لا
تزال في بداية مهدها، وتحتاج لمزيد من الرعاية ،
وطلبت منه الدعاء والدعم ، وأجابني مقتنعاً مثنياً
ومذكراً ومعتزلاً ، بأنني كنت خير معلمٍ وهادٍ ورفيقٍ
فجأة انتهت الحياة الهادئة المسالمة في قيسارية ،

بدأت تداهما عواصف وأعاصير الاضطهاد الديني
مرة أخرى على يدي الامبراطور البربري القاسي ،
ماكسيمين ، الذي طلب رأسي بالاسم ، التجأت إلى
السيدة جوليانا وريثة صديقي سيماخوس ، الذي
أهديته مخطوط العهد القديم مترجماً إلى اليونانية مع
سنة آلاف تفسير ، بقيت في منزلها متخفياً لمدة
سنتين ، خلال هاتين السنتين أنهيت الكتاب
(الألفين - إكسابلا) بالإضافة للسنة ألف شرحاً
للكتاب المقدس ، باليونانية والعبرية والآرامية
والسريانية واللاتينية .

بعد مقتل الامبراطور عدت إلى المدرسة وإلى
تلاميذي ، ولكن لم يدم الأمر طويلاً ، فمع وصول
الأمبراطور دقيوس بدأت ملاحقة ومطاردة أتباع

يسوع المسيح من جديد ، وبشدة أكبر ، حاولت
التخفي والتنقل من مكان إلى آخر ، سافرت إلى
بيلينية وأثينا ونيقوميديا ، وهناك وصلتني رسالة
من يوليوس أفريقانيوس ، يسألني فيها عن قصة
سوسنة إن كانت جزءاً أصيلاً من سفر دانيال ،
وأجبتة برسالة مطولة بعثتها إليه من نيقوديمية ،
ألقي القبض عليّ واقتادوني إلى سجنٍ داخلي ،
طوقوا عنقي بسلاسل الحديد لدرجة لم أكن قادر
على الحركة من ثقلها ، وربطوا قدميّ مفتوحتين على
خشبتين ، وانهالوا علي ضرباً وكلما تعبوا علقوني
من قدمي

: ماذا كانوا يريدون ؟

: البراءة من المسيح

بعد فترة طويلة من العذاب ، لا أذكر بالضبط كم ،
أدخلوا عليّ رجلاً ضخماً أسوداً ومبخرة وخيروني ..
إما أن أنكح الرجل أو أشعل البخور تقدمة لألهتهم
طالباً المغفرة منها ، فرفضتُ ، عندها أمروا الرجل
أن يغتصبني ، فرفض ، فانهالوا عليه ضرباً حتى
أغميَ عليه ، فسحبوه من السجن واتجهوا صوبي ،
سحبوني إلى باحة السجن ، وراحوا يضعوا الحطب
حولي بشكلٍ دائري حتى صار أعلى مني ، وتقدم
مني أحدهم وسألني

: اعلن البراءة فنطلق سراحك فوراً

فرفضت .. أوقدوا النار في كومة الحطب ، صار
لهيب النار يلسعني من كل حذبٍ و صوب ، لم أعد
أراهم من شدة اتقاد النار وارتفاع ألسنتها ، لم تصل

إليّ , لكنني أحسست أنني سأموت اختناقاً .. غبت
عن الوعي , وكنت جداً فرحاً لاقتراب الفرج , أفقت
وهم يدلّقون عليّ الماء , أيقنت أن أجلي لم يأت بعد
, جاء السجنان وسألني

: ما رأيك ؟ تعلن البراءة أم ما زلت مصراً ؟ لقد
هيئنا لك هذه المرة كومة من الحطب ستجلس عليها
.. هذه المرة سنحرقك

أحسست بالسعادة , لقد اقترب الخلاص , ولكنه لم
يف بوعدده , بل أعادوني إلى السجن , في اليوم
التالي أدخل السجن إليّ رجلاً , اقترب مني وهمس
في أذني

: أنا رسول البابا ديونسيوس إليك .. البابا يبلغك
سلامه ويقول لك .. أنت من علمنا عشق الشهادة

قولاً وها أنت تقرن القول بالفعل وتصل إلى ما كنت
تحبه وتعشقه وتسعى إليه فاثبت ونل ما أحببت
وعشقت وادع لنا , سألته

: كيف استطعت أن تدخل إلى هنا ؟

: قلت لهم إنك صديقي واستاذي و أستطيع إقناعك
بالبراءة , فوافقوا على إدخالني

قلت له : ابغ البابا سلامي وقل له لا تخف مازال
أوريجينيس الذي عرفته وخبرته لا ينقض عهده
لخالقه , ولا يترك النور ويذهب إلى الظلام .. قل له
.. هو امتحان الصفاء الذي أعده الخالق لمنتجبيه
في اليوم التالي دخل الجلاذ وخلفه أربعة من زممرته
وسألني

: ألم تغير رأيك ؟

: بماذا ؟

: أن تعلن البراءة من ضلالك الذي أنت فيه ونطلق

سراحك فوراً

ابتسمت ولم أرد , علقوني وصاروا يتناوبون على

ضربي , لم يطل الزمن كثيراً , أحسست ببرودة

لذيذة تجتاح كل مسام بي , وأن شيئاً ما خرج دفعة

واحدة من جسدي

مسكت نرجس بيده التي تلفها , وحضنتها وراحت

تقبلها , سحبها وضمّها وراح يمسح شعرها

: لا تقعلي ذلك يا حبيبيتي .. لا أحبه .. نامي يا

عمرى .. نامي تصبحين بألف خير

وصل خبر وفاة الشيخ حبيب إلى القرى البعيدة

وبدأت وفودها تتقاطر تباعاً للقيام بواجب العزاء ,

أم إبراهيم صارت محور اهتمام نرجس , لأنها
لاحظت امتناعها عن الطعام , فكانت إن أكلت ..
تأكل ما يسدّ الرمق , عند المساء صارت تبقى هي
وعلوش حتى يلاحظا أن النعاس أخذ يدب في
أوصالها , أم إبراهيم صارت تتنأب لتوهمهما
بالنعاس ليغادرا ويرتاجا

: كأنني أراك قد نعستِ يا أمي ؟

: كأنه كذلك يا ابنتي

مددتها جيداً وودعاها وغادرا

وكالعادة راحت تساعده بطرح ملابسه

: كأن اليأس دبّ في قلب أم إبراهيم اليوم لم تسأل

عن أولادها

: الله يديم عليها الصحة والعافية ويلبسها أثواب

ستره .. ليس الأمر هيناً عليها يا نرجس , أن
يحضر كل من عرف وسمع بالشيخ حبيب ؛
ليشارك بمأتمه , وأولاده غير موجودين , فقدان
الشيخ بالنسبة لزهرة , لا يعادله إلا غياب أولادها
وكالعادة رفعت له الغطاء , وتمدد مبتسماً كطفل ,
واندست في حضنه ؛ لتغوص في بحره الذي لا
قرار له , تتهد وتتنطوق وجهه مُقبلةً .. وتترك رأسها
فوق زنده يرتاح كي تراه وهو يتكلم قائلةً

: كنا على باب الجيل الرابع

: حاضر يا أميرة الروح ..

ولدت في أصبهان لأبٍ يعمل في التجارة وذي باع
طويلٍ فيها , كان اسمه (دبير) وكان اسمه في سوق
التجار كاللون المميز , محترماً مقدراً - ف دبير

بألفارسفة هو المعلم والأمن والقءوة - كان بالنسبة
وق النار فوق جبل فف الصءق

تزوج وأخواتي كذلك ، وغادروا البيت ، وبقيت أنا
وهو وأمي ، فصرت شغلهم الشاغل ، أخذني والدي
باكراً إلى المدرسة الدينية الزرادشتية - هي لم تكن
مدرسة كما يسميها العامة كانت مجعماً ضخماً ،
كان يُدرس فيه إضافة للاهوت ، علم الفلك وعلم
الحساب ، وعلم الجغرافيا والتاريخ ، وعلوم الكيمياء
والفيزياء ، دخلت المدرسة وأنا اعرف الفارسية قراءة
وكتابة ، وأعرف الحساب ، فاجتهدت لمعرفة
الزرادشتية بشكل جيد ، عرفتُها بشكل بسيط من
والدي في الجيل الأول أماسرة " أماستريس "
فاجتهدت جداً في تعلمها ودراستها وفهمها ،
واظبت على تعلمها وفهمها ست سنوات ، كانت
علاقتي بالكهنة المدرسين جيدة جداً ، بل كانت

علاقة حميمية لدرجة كانوا يمرون بأبي في السوق
دائماً ، ويحدثونه عني ، وعندما كان يأتي
للاستراحة ، كان يضمني ويشكرني
: أنت رفعت رأسي يا ولدي

درست كل ما قاله زرادشت بمنتهى العناية والتعمق
والتأمل في الثانية عشرة من عمري أنهيت دراسة
اللاهوت ، كان في المدرسة مكتبة ضخمة جداً ،
استأذنت مدير المدرسة بالاطلاع على محتوياتها-
وكان كاهناً راقياً لطيفاً محباً ، في السبعين من عمره
- ربطتني به علاقة حميمة كأغلب المدرسين ،
فأذن لي بمودة . واطبت على الحضور إليها بشكل
يومي لمدة سنة كاملة اطلعت على أغلب
محتوياتها المهمة قبل نهاية العام وفي أحد الزوايا

وجدت رفاً مهماً عليه مجموعة كبيرة من
المخطوطات يعلوها الغبار لدرجة كبيرة ، مسحت
أول مجلد وفتحته ، كان لـ "ماني" وتذكرت أنني
التقيته في قيسارية عندما زارنا في مدرسة اللاهوت
وتحاورت معه لمدة اسبوع كامل .. كان رجلاً متقد
الذهن حاول الجمع بين اليهودية والمسيحية
والزرادشتية ، ولكنه كان مصراً على أنه نبي يوحى
إليه ، وأعتقد إن هذا كان السبب الرئيسي لعدم
تلاقينا ، وهو من حفزني كثيراً على الاطلاع على
زرادشت من مصادره الرئيسية ، وعزمتُ على السفر
إلى فارس ، ولكن الموت عاجلني قبل أن أحقق
حلمي ، في المخطوط الثاني كانت المفاجأة التي
ملأت روحي بهجة وحبوراً ، كان جزءاً من خمسين

جزء ، للكتاب المقدس ، مع شروحاتي عليه ، أقصد شروحات أوريجنيس ، مترجماً إلى الفارسية ، وإلى جانبها النسخة الأصلية التي ترجمت عنها وهي باللغة الآرامية ، نوه الناسخ في نهاية الجزء الخمسين أنه نسخها عن نسخة بخط سيمارخيس أملاه عليه أوريجنيس بالذات ، اطلعت على النسخة الآرامية ، كانت دقيقة جداً ، إلا بعض أخطاء النسخ البسيطة والتي لا تؤثر على المضمون أبداً ، ثم بدأت بقراءة النسخة الفارسيّة ، وهنا كانت الطامة ، كانت الترجمة سيئة لدرجة أفرغت أو قلبت أو عكست المعنى والمضمون في أغلب النصوص ، واحترت كيف سأخبر الكاهن صادقانه مدير المدرسة عن هذا الموضوع ؟ ماذا سأقول له ؟ عن

هذه الترجمة غير الصحيحة لهذا الكتاب

في صباح اليوم التالي ذهبت إليه

: صباح الخير استاذي الكريم

: صباح الأنوار آزاد .. تفضل يا ولدي

: هل يسمح وقتكم للحديث معي , بأمر قد يكون

مهماً وقد يكون غير ذلك ؟ وأرجو المعذرة والصفح

يا سيدي

: يا ولدي .. أنت تستطيع الحديث معي , وفي أي

وقت تريد .. ما الأمر يا ولدي ؟

: خلال بحثي في المكتبة وقع تحت يدي مخطوط

كبير للكتاب المقدس للديانتين اليهودية والمسيحية ,

نسخة باللغة الفارسية , مترجمة عن نسخة باللغة

الآرامية , درست النسختين , وجدت بينهما خلافاً

كبيراً , أقصد نسخة اللغة الفارسيّة مختلفة كلياً عن
النسخة الأصليّة الآرامية .. أقصد الترجمة غير
صحيّة على الإطلاق , بل تشوّه النص الأصلي
وكما توقعت زهل مما قلته

: يا آزاد .. يا ولدي .. كيف عرفت ؟ وهل تجيد
اللغة الآرامية ؟

: نعم أستاذي .. أجيدها

: كيف ؟ متى ؟ من علمك ؟

: يا أستاذي .. لدي صديق يجيدها جداً .. وهو من
علمني , وأكد لي أنني صرت كمن يتكلمونها
ويكتبونها

: تعال معي وأرني

ذهبنا سوياً إلى المكتبة , ورحت أفتح له المجلد

باللغة الفارسيّة وأفتح على نفس النص باللغة
الآرامية وأقرأ له النص وبدون أن أنتبه لنفسي ..
كنت أقرأ كمن يحفظ ما يقرؤه غيباً , و أشرح له ,
الفرق بين النص الأصلي , والنص المترجم ,
انتبهت متأخراً أنني كنت أشرح باهتمام بالغ ,
الدهشة التي كانت في وجهه , هي من أيقظني ,
سألني

: يا آزاد .. يا ولدي .. هل قرأت كل هذه

المخطوطات ؟

: نعم يا أستاذ

نظر إلي بتمعن وسألني

: يا آزاد .. يا ولدي هل قرأت " الافيستا " كما قرأت

هذه؟ أقصد هل فهمتها كما فهمت هذه ؟ وتستطيع

أن تشرحها كما تشرح الآن ؟

: يا سيّدي .. أنت استاذي وأنت من يعلم عني كل

شيء .. نعم يا سيّدي أنا أحفظ الافيستا كما أحفظ

اسمي وأعرف مضمونها كما أعرف نفسي

: يا آزاد أنا لم أسألك لأختبرك , لأنني أعرفك , أنا

سألتك لغاية أخرى

: ما هي يا سيّدي ؟

: هل تستطيع شرح الفرق بين الافيستا وهذا الكتاب

؟

: يا استاذ في المضمون لا فرق على الإطلاق ..

هناك فرق في اللغة والترجمة هذا الفرق الأول كما

رأيت الآن , وهناك فرق الرؤية وهذا هو الفرق

الثاني

: زدني زادك الله

: يا سيدي .. الشمس عندما تشرق , هل يختلف
مضمونها فوق أصبهان وفوق شيراز وفوق المدائن
؟

: لا

: يا أستاذي .. هل شمس الصباح تشبه شمس
الظهيرة وشمس الغروب ؟

: لا

: بالرغم أن الشمس هي هي .. لم تتغير ولم تتبدل
وكذلك شمس الصيف وشمس الخريف وشمس
الشتاء وشمس الربيع .. الشمس هي هي .. ولكن
زاوية الرؤية والمكان تغيرت .. كلٌّ يرى حسب
قدرته .. حسب ما وهبه الله من قدرة على الرؤية ,

فالأعمى لا يرى كما يرى المبصر , والمبصر لا
يرى كما يرى البصير

: يا آزاد ما الفرق بين المبصر والبصير ؟

: يا سيّدي .. المبصر يرى الأشياء .. والبصير

يعرفها .. البصر يا سيّدي هو تلك الفتحة أو

الفتحتان اللتان تعكسان صور الأشياء إلى البصيرة

(العقل) والذي هو فيض من نور الخالق في

مخلوقاته , كل بما يستحق

: من أنت يا آزاد ؟

: تلميذك الذي يجلك ويحترمك مدى الحياة

: طابكم يا سيّدي ؟

: استغفر الله ياسيّدي .. استغفر الله

وانحنيت على يديه لأقبلها فلم أفجح , فقبلته على

ثيابه , سحبهما إلى الخلف وهو يقول
: لا تفعل هذا بعد الآن .. على الإطلاق .. قل لي
ماذا كنت تريد ؟

: أتأذن لي بإعادة ترجمة هذه المخطوطات إلى
الفارسية ؟

: بكل الحب ومع كل الشكر

: شكراً يا سيّدي

اقترب مني وضم رأسي إلى صدره

: لم تقل لي من أنت يا آزاد ؟

: تلميذك الوفي يا سيّدي

: والله يا آزاد نحن تلاميذك وليس أنت , عندما

تقرر أن تبوح لي , تكون أكرمتني , وأنا أنتظر

كرمك

عملت بشغف وحنين منقطع النظير ، خلال خمسة
أشهر أنهيت العمل وبخط يدي ، كان الاستاذ
صادقانه مدير المدرسة يمرّ يومياً وأحياناً يبقى واقفاً
ينظر إليّ من بعيد ، سألني مرة واحدة لم يكررها
: يا آزاد .. أراك تكتب ولا تنظر إلى النسخة
الأصلية .. تكتب وكأنك تحفظ ما تكتبه عن ظهر
قلب

: يا سيّدي أقرأ النص بدقة ثم أترجمه وهكذا أظهر
كأنني أحفظه
نظر إليّ ملياً ، وعرفت أنه لم يقتنع ، كان يقرأ ما
ترجمته مطولاً ، وأحياناً يناقشني ، وفي كل مرة ،
كان يغادر وكأنه يراني لأول مرة ، ويودعني بمنتهى
الود والاحترام

كتابتي للكتاب المقدس أشعلت بي الحنين ، ولم أعد
أعرف إلى أين أذهب ، إلى هرقليا حيث كانت
أماسرة .. إلى طبريا حيث كانت أوسيلا .. إلى
الاسكندرية حيث كانت ماريا .. كيف سأترك
وأخوتي وأبي الذي يرى الكون من خلالي ؟ وأمي
تاج التي ما زلت في نظرها طفلاً يحتاج لرعاية ،
أيقنت أن والدي هو المنقذ ، فهو يحب العلم
والتبحر فيه ، أخبرته أن في المدائن مدرسة يعلمون
فيها أصول الكيمياء والطب ، وأريد الذهاب إلى تلك
المدرسة ، حاول أن يثنييني عن ذلك ، لأن المكان
بعيد جداً وما حصلته هنا جيد ، سأل الأستاذ
صادقانه

: يا أستاذ .. آ زاد يريد الذهاب إلى المدائن لدراسة

الكيمياء والطب , يقول إن هناك مدرسة متقدمة في
هذا العلم فما رأيك ؟

: ليس لدي معلومات دقيقة عن ذلك , آزاد شاب
يمتلك عقلاً يتفوق فيه علينا جميعاً , دعه يذهب
حيث يشاء , لا تقف في طريقه

سافرت بعد عيد الرابع من نيسان (النيروز) مع
قافلة تجارية إلى المدائن , بقيت فيها عاماً كاملاً ,
ثم غادرت إلى الرها مكثت فيها عامين التقيت فيها
بعدد كبير من رجال الدين ,وكانت أحد مراكز
الجدل والهرطقات الجديدة, كان حال المسيحيين في
أغلب الكنائس التي دخلت إليها وتحاورت مع
قساوستها , تشي بانقسامات وتباينات جديدة في
التفسير ومزيد من البدع

غادرت إلى إنطاكيا ومكثت فيها عاماً كاملاً , ثم
غادرتها إلى الشام بقيت عدة شهور حتى سمح لي
اسقف كنيسة يوحنا المعمدان بالإقامة والخدمة ,
مكثت فيها عامين , ثم غادرت إلى طبريا بقيت
هناك عامين ونيف تتبعت أثر أهلي هناك , ثم
غادرت إلى قيسارية مكثت فيها سنة ونصف زرت
كل معابدها ومدارسها , ثم غادرت إلى بيت المقدس
مكثت فيها ستة شهور , حتى التقيت بقس من
بصرى الشام , هذا الكاهن الذي أخذني في البداية
بلطفه وتهذيبه حيث توطدت العلاقة بيننا جداً بعد
ملازمتي له لشهر كامل , القس غسان .. كان رجل
حاد الذكاء واسع الاطلاع , قوي الحجة , محدث
من الطراز الرفيع , وكان محباً معجباً بأوريجنيس

حدثني عن رجل ظهر في الحجاز يقولون إنه نبي
يوحى له , ينزل الله عليه آياته وقرأ عليّ بعض
مما سمع وحفظه , كان القس غسان من المعجبين
بما يدعو إليه هذا النبي , استأذنته أن أرافقه إلى
بلاده .. بصرى الشام وإمكانية استضافتي لديه ,
رحب بي أجمل ترحيب وغادرنا في صباح الأول
من نيسان , اليوم الأول للسنة السورية , لم يطل
مكوثي في بصرى طويلاً , فبعد لقائي بالقس غسان
وحديثه عن هذا الرجل , صارت وجهتي الحجاز
لرؤيته , رحلتُ مع أحد القوافل التجارية , سألت
الرجل الذي أجّرني راحلة في إحدى استراحاتنا
: سمعت أن لديكم في مكة رجلاً يقول إنه رسول
من عند الله يُنزل عليه آياته

: نعم .. انه محمد ابن عبدالله الهاشمي .. ولكنه لم

يعد في مكة

: كيف ؟

: أقصد لقد ترك مكة وهاجر إلى يثرب هو بيننا

الآن

: أنت يثربي ؟

: نعم

: هل صدقتموه ؟

: الأغلبية صدقته وأمنت بدعوته .. يثرب ما زالت

تزهو بنصر حقه النبي وانصاره على قريش في بدر

, وهزموهم شر هزيمة

: حدثني عنه هل هو رجل مثلنا ؟

: إذا نظرت إليه تراه رجلاً , ولكن لا أعتقد أنه مثلنا

: عندما نصل أتدلني عليه ؟

: أتقصده ؟

: نعم

: أنت يهودي ؟

: أنا من أهل الكتاب

: لو كان بين كل خلق الله لميَّزَهُ مُحَبَّوهُ ومُبْغِضُوهُ ..

عندما نصل ستذهب إليه وبدون دليل

عندما وصلنا وتفرقت الرواحل في كل الاتجاهات

نزلت عن الراحلة ونظرت في كل الاتجاهات , كان

الرجل ينظر إليّ وهو يبتسم , شكرته وودعته

وذهبت باتجاهٍ ساقني إليه دليلي , فقال الرجل وهو

يشيعني

: ألم أقل لك ؟ على رسول الله السلام

سرت في طريق أخذني إلى ساحة تطوقها البيوت
وقفت قليلاً وأنا أتأمل البيوت ، أحد البيوت كان
جداره طويلاً في ثلثه الأول باب عريض مفتوح
ذهبت باتجاهه ، قبل أن أصل بقليل خرج إليّ رجل
أسمر غامق سلمت عليه وسألته

: هل هذا بيت محمد بن عبد الله الهاشمي ؟

: نعم .. أهلاً وسهلاً

: أنا آزاد بن دبیر من فارس أريد مقابلته

رحب بي وبقیت في ضیافته ثلاثة إيامٍ سألني عن
كل شيء وأخبرته بكل شيء ، وسألته عن كل ما
أريده ، كان سروره كبيراً عندما عرف أنني أتقن
الآرامية والعبرية والفارسية والإغريقية ، في صبيحة
اليوم الثالث بعد صلاة الفجر أشهرت اسلامي

واستأذنت النبي أن أجد لنفسي مسكناً قربه

: أتذكر صفاته ؟

: نعم أذكرها .. جداً .. كان عليه الصلاة والسلام

..

صلت الجبين , مقرون الحاجبين , أدعج العينين ,

سهل الخدين , أقنبي الأنف , دقيق المسربة , كث

اللحية , براق الثنايا وجهه وما يُرى من عنقه

أبيض كالبرد , لم يكن بالطويل الذاهب , ولا

بالقصير النزر , نوره يملأ المكان الذي يتواجد فيه ,

إذا مشى كأنه ينقلع من صخر أو ينحدر من صبيب

, دقيق الخصر ,

لازمت المسجد , لا أبرحه إلا لأنام حتى كانت

موقعة أحد , خرجت مع النبي بعد أن استشار الناس

ومال مع رأي الأكثرية بالخروج لملاقاة قريش خارج
طيبة (يثرب) عسكر المسلمون في قمة أحد وفي
سفحه ووزع النبي المقاتلين بدقة , كانت جموع
قريشاً كبيرة جداً وكان المسلمون قليلين جداً , بدأت
بالمنازلات وكان الفوز للحمزة وعلي دائماً , ثم
احتدمت المعركة , كان الحمزة يعادل جيشاً بأكمله ,
انهار جيش قريش وبدأ يولي الأدبار , ولحق بهم
رجال النبي . خالد بن الوليد كان قائد جيش الخيالة
في جيش قريش , حاول مرتين أن يلتف على
المسلمين , ولكن رماة السهام كانوا له بالمرصاد ,
عندما رأى الرماة تركوا مواقعهم وذهبوا لجمع الغنائم
, التف على الجبل وهاجم من الخلف , استشهد
الكثيرون واقتربوا منا تطلقنا حول النبي لحمايته ,

عاد عليّ وراح يصدّ جيشاً من الخيالة والرماة ,
صارت غايتهم الوصول إلى النبي , افتقدت الحمزة
, لم أعد أراه , آخر ما أذكره أن سهماً اخترق
صدري وسقطتُ على وجهي

وهي تمسح دموعها

: هذه المرة لن أبكي

ضمها إلى قلبه وراحت أصابعه فوق شعرها تبتهل
الكرى لعينيها

لليوم الخامس ثابت شاطئ الزهور على استقبال

ضيوف الشيخ حبيب بكل ودٍ وترحاب , لم يتركوا

علوش واسماعيل لحظة واحدة , ونساء الشاطئ كنّ

دائماً يتناوبن في التواجد قرب نرجس , سكينه البارة

بوالديها , الوفية لبيت الشيخ منصور , بقيت كالعادة

تأتي باكراً ، وتهتم بأم إبراهيم وبالبيت ، قبل أن
تشرق الشمس تكون قد أنهت كل شيء ، وصارت
تلازم أم إبراهيم كأمها وأبيها وتوزع وقتها بينهم ، وأم
إبراهيم كانت ترتاح للطلب منها ، فكرم وسمو وهيبة
نرجس كانت تحسّسها دائماً بالحرص ، فكانت تحسّ
أن الله منّ عليها بوجود هذه الطيبة ؛ ليخفف عنها
قليلاً هذا الحرج ، فغياب أولادها وعقوقهم لها
ولوالدهم كان يشكل لها حزناً مميتاً وخاصة أنه
داخلي لا قدرة لها على إعلانه ، وما كان يزيد في
تقطيع أحشائها هو تلك المقارنات التي تدور في
خلدها بين أولادها ونرجس .. نرجس الأنثى وما
أدراك ما الأنثى ، وأربعة رجال ، وما أدراك ما
الرجل ، في نظر المجتمع والأم والأب ، والتي

مسحته نرجس دون أن تقترب منه ، مسحته ببرّ
ليس والديها فقط ، بل وعمها وزوجته ، مسحته
بالمحافظة على كرامة عائلتها كلها أحياء وأموات ،
دوّش عقده وأثرت تقلدون اعترافٍ معلى أ

قبّلها بوجد وهو يقول

: تتشوقين لفصل الختام ؟

: جداً

عليشي - علوش كما تحبين - الذي قطع كل هذه
السنين ؛ ليصل إلى حضنك .. آخر ولادة له كانت
في بلدة من أجمل بقاع الأرض اسمها تطوان ،
على ساحل البحر في المغرب الأقصى ، تطوان
التي ولد فيها الجمال وترعرع كحمامة بيضاء
ناصعة ، زواريبها وأزقتها وحاتها - من باب العقلة
إلى المصداع إلى الغرسة الكبيرة إلى العيون إلى
الوسعة إلى الطرايين ، والحدادين ، والنجارين ،
والدباغين ، تطوان التي يملأ أزقتها وأدراجها
وحاتها ، عبق الطيب والدفء ، هنا ولدت ، والدي

حسن بن علي احدادو , كان شيخاً ومعلماً وطبيباً ,
يصنع ويركب أدويته من الأعشاب , تزوج من
ماما أمينة ابنة خاله وكانت زوجته الأولى , سيدة
في غاية الجمال والأدب , أنجبت فاطمة وعُلَيّا ولم
تنجب بعدهما , فتزوج سُمَيّة بنت صالح القاضي
وكان والدها أحد قضاة تطوان , فلم تنجب أبداً ,
فتزوج والدتي الزهراء بنت محمد احدادو , وكانت
من بنات عمومته البعيدات , عندما حملت والدتي
تركت خالتي سُمَيّة البيت , أقصد لم أرها في بيتنا ,
ماتت أمي أثناء الولادة , بعمر الثلاث سنوات
عرفت بالصدفة أنّ ماما أمينة ليست أمي التي
حبلت بي , وفي هذا السن صرت أتذكر كل أجيالي
السابقة , ماما أمينة , كانت أكثر من أم وأختاي

فاطمة وعليا ، كانتا كذلك أمان لي ، دفنهن
وحنانهن ملأني سعادة واطمئناناً ، كان عمري عشر
سنوات حين تزوجت فاطمة ، حزنت عليها كثيراً ،
بعدها بعام تزوجت علياً ، شعرت بفراغ هائلٍ
بغيابهن ، والدي "الحكيم كما كان كل سكان تطوان
ينادونه " عندما تزوج أمي كان عمره ستين عاماً
وربما أكثر ، لذلك لم أره إلا شيخاً ، كان اسم علي
مسمى " حكيم " وكان رؤوفاً عطوفاً ، في داخله
شاب لا يشيخ رغم نحوله ، درست على يديه ،
أقصد استعدت ذاكرتي .

: ولم تقل له شيئاً ؟

: لا أبداً .. كان أحياناً يتفاجأ بسرعة الحفظ عندي
، وسرعان ما كانت تزول عن ملامحه الدهشة وهو

يقول

(سبحان الوهاب , يعطي كل إنسان استحقاقه ..

الله يفتح عليك يا ولدي)

لبي نداء باريه بعد ثلاث سنوات من زواج أختي

عُليًا , صرت أقضي وقتي في التجوال في تطوان ,

وزيارة زاوية العيون للمتصوفة , ولكن ضخامة

جسدي زادت وحدتي , فأبناء جيلي كنت بالنسبة لهم

كبيراً جداً , وربما أنا لم أكن أستسيغ تصرفاتهم

الصبيانية , والكبار كانوا يرونني طفلاً بحجم كبير ,

فلم أستطع تكوين صداقات فكنت لا أتكلم إلا نادراً ,

وهذا ما زاد باشتعال حنيني لأماكن مازالت حية أمام

عيني وقررت الرحيل , ودعت أمي وأختاي , على

أنني ذاهب إلى الحجاز , جئت سيراً على قدمي لم

تصادفني مدينة ولا بلدة على طول هذا الشريط
الساحلي لم أمكث فيها , لبضع أيام أو شهور ,
عندما وصلت إلى تنور أبي أحمد , كنت أكملت
الخامسة والثلاثين عاماً ونيف وأنا أمشي

: يعني كنت في التاسعة والأربعين

: كنت تجاوزت الخمسين

: أتيت ماشياً , لم تمتط أي دابة ؟

: على الإطلاق .. وبعد مغادرتي تطوان رميت

الحذاء الذي كنت أنتعله , ولم أنتعل بعدها حذاءً إلا

في شاطئ الزهور

: والشتاء .. والبرد ؟

: كنت دائماً أقضي فصل الشتاء في الزوايا

والعتبات , والمزارات .. أقصد مقابر الأولياء , إلا

هذه المرة لم أحسبها جيداً ، فقد سرت خمسة شهور
لم أهدت إلى زاوية ، كنت أجد أضرحة وتشريفات
ولكنها خالية وبعيدة عن السكن ، الآن أيقنت أنها
مشيئة الباري ألا أجد زاوية أو مقاماً ، من بعيد وأنا
أمشي انقشع الضباب ورأيت قبة الشيخ عبد الله ،
فاتجهت صوبها ، عندما وصلت إلى تنور بيت أبي
أحمد كان مليئاً بالجمر قررت أن أبات قربه للصباح
: من أين كنت تأكل

: منذ خروجي من تطوان عاهدت الله ألا أحمل
معي زاداً يزيد عن قوت يوم ، كنت آكل من أديم
البراري أغلب الأحيان
: ألم تتعرض للخطر .. من وحوش البراري .. من
قطاع الطرق ؟

: من الوحوش .. لا .. كانت تمر من جانبي ,
أحياناً تتأملني وتغادر , أما قطاع الطرق , فقد
التقيتهم آلاف المرات , كنت أسمح لهم قاصداً أن
يفتشوني , وفي كل مرة كانوا يعتذرون , ويتركوني
في سبيلي , ودائماً كانوا يعطوني بعض الطعام
: ألم يخطر ببالك أن تبقى في إحدى الزوايا ؟
: كل الزوايا التي مررت بها , من كانوا بها آمن
من اعتكف فيها , بأن طريقتهم ستوصلهم إلى
الباري عزّ وجلّ وغيرهم في ضلال , أنا لم أختلف
مع أحد على السبيل , فكل طرق الخير والنظافة
والاستقامة .. تصل إلى الخالق , أما في التفسير
والتفاصيل , ربما نختلف , وهذا ما جعلني أغادر ,
فأنا لا أستطيع تحمل تضليل وتكفير الآخر وحصر

الوصول إلى الخالق بطريق واحد ، خاصة وأنا من
خبر عبر أجيالي هذه الطرق ، وفي الحقيقة أنا
منذ خروجي من تطوان ، وهبت عمري للسير في
أرضه الواسعة عابداً متأملاً ، حتى جاءني الشيخ
منصور وقطع طريقي

: هل أنت نادم ؟

: يا نرجس .. أنا قطعت آلاف الأميال ، اقترب
مني الموت آلاف المرات ، ولم أكرث به ، لم أمت
.. لأن مشيئة الله منذ ولدت أن أصل إليك .. أنا
مؤمنٌ أنك نهاية دربي في أفق طهرك
غمرت وجهه .. أغرقته بقبلها ، ثم تكورت في صدره
ونامت

لم تتأخر أم إبراهيم عن اللحاق برفيق عمرها ، في

صباح الاثنين ، جاءت سكينه كالعاده باكراً ، وجدت

أم إبراهيم تحاول النهوض فلا تستطيع ، أسرع

إليها ، أجلستها ووضعت خلفها وسائد

: الله يصبحك بالخير يا أم إبراهيم

: الله يسعد كل أيامك يا ابنتي يا سكينه .. هل

استيقظت نرجس ؟

لم تكمل السؤال حتى كانت نرجس عند العتبة

: نعم يا أمي .. ها أنا قد أتيت

: يا ابنتي .. أريدكما أن تحماني

: حاضر .. دقائق ويكون لك ما تريدين - ردتا معاً

: أنا سأجهز الماء ابقني أنت قربها

: إلهي يسترك دنيا وآخرة يا سكينه

عند الساعة التاسعة انهيتا كل شيء

: الآن سنأكل سوية علوش ينتظر

: يا ابنتي .. لا أريد .. نادي لولدي علوش أريد أن
أودعه

: لماذا تقولين ذلك يا أمي ؟ أنت اليوم أفضل من

أي يوم مضى والحمد لله

: أعرف يا ابنتي .. أعرف .. ولكن ناديه

خرجت نرجس وهي شبه موقنة أن أم إبراهيم تودع

: حبيبي أم إبراهيم تريدك .. كأنها تودعنا

: الله يصبحك بالخير يا أم إبراهيم

: الله يسعد صباحك ومساك وكل أيامك يا ولدي ..

يا ولدي .. يا ابنتاي .. سامحوني .. ادفنوني هنا

يا ولدي .. قبلوني يا ولدي

يا ولدي إحساسي يقول لي أنني سأغادر .. قبلني

يا ولدي

فتل علوش الفراش قليلاً , اقتربت منها نرجس
وقبّلتها

: هل توصيني شيئاً يا أمّاه

: سامحوني يا أولادي .. الحمد لله الذي سترني بكم

: يا أم إبراهيم .. سامحينا واسمحي لنا أرجوك

: إلهي يبارك بكم كفيتم ووفيتم وأفضتم .. إلهي

يسامحكم

نظرت إليهم وتنهدت ومالت رأسها ونامت إلى الأبد

. عشرين يوماً تأخرت عن الشيخ حبيب , ولحقت

به حزينة مقهورة

مرّت سنة وبضع شهورٍ على زواج نرجس وعلوش ,

وكل يوم يتغير عن اليوم الذي سبقه , علوش الذي

غادر تطوان ليصل إلى قبره , وصل .. قاده قدره
.. إلى جنة نرجس بأبوابها .. الأخلاق .. الطهر ..
الجمال .. الأنوثة .. والحب الجارف , وكلما فتح
باب , فتحت الحياة ذراعيها وناذته
نرجس .. من يوم رأت عينها علوش , وهو كل يوم
يولد من جديد .. هذا الجبل العالي .. كلما اقتربت
منه ارتفع أكثر .. كل يوم تعرش على جدائل نوره
, وكلما وصلت إلى قمة تجد قمماً أخرى
: أيها القديس .. كأنني سأنهي عمري وأنا أكتشف
.. أيها الطاهر .. كم أتمنى أن أكون حفنة ماء ,
تشربني , وانتشر في عروقك وأنا
: في كل هذا العمر الطويل .. الطويل , والذي
أذكره بكل تفاصيله , نرجس هي المحطة التي لم

أستطع مغادرتها .. يا نرجس سعادتك هناؤك كل ما
أريده

: وجودي هنائي وسعادتي .. أنت أكثر بكثير ..

بكثير مما كنت أحلم وما تحلم به أنثى

: ألا يشغلك شيء آخر يا نرجس ؟

: أتمنى .. ولكن حتى يأذن الله .. أنت أبني وأبي

وأخي وأمي وكل وجودي

في الشهر الخامس بعد السنة أيقنت نرجس أنها

حامل

: كأن الله أذن يا حبيبي

: تأكدتِ ؟

: نعم .. وسألت سعدية

: الحمد لله .. كل ما يسعدك يا نرجس أحبه وأعشقه

بان على نرجس الحمل , وصارت في الشهر
الخامس بحجم امرأتين وأكبر , أكثر الناس سعادة
وفرحاً بحمل نرجس كانت خزنا وسكينة , وصار
ممنوع عليها أن تقوم بأي عمل ومهما كان
: يا ست نرجس .. أنت أختي وأغلى ما في هذا
الكون عندي , ممنوع أن تفعلي أي شيء , اتركي
كل شيء لي , فقط انتبهي لنفسك
: أنت يا سكينة قطعة من روحي , إلهي يسترك
بستره ويرزقك بابن الحلال الذي يملأ روحك وقلبك
طمأنينة

في الشهر السابع أكدت سعدية لنرجس بعد أن
تلمست بطنها بتأني وعناية
: كما توقعت يا ست نرجس .. في رحمك توعم

والعلم عند الله

قالت وكل شيء فيها يبتسم

: أحسّ بحركة متعاكسة في نفس الوقت يا سعدية

: الله يسلمك ويسلمهم يا ابنتي .. الحمد لله

نرجس .. امتلاً بها علوش حتى الغرق , ولكن

اليوم شغلت كل تفكيره , زاد حجمها وحجم بطنها ,

وحركتها صارت بطيئة ومتناقلة جداً , ولكنها ما

زالت نرجس المبتسمة الهنيئة , نرجس التي لا

تغادر نظراتها عنه , ترتديه بنشوة المخمور

: يا روعي يا هوائي الذي أتتفسه .. أنا بخير .. لا

أريد أن أرى هذا القلق في عينيك .. أنت أول مرة

وفي كل أجيالك تصير زوجاً وتتحضر لتصير أباً ,

وأنا أول مرة أتظهر برجل وأتحضر لأكون أمّاً -

أقصد الله لم يفض عليّ بمعرفة أجيالٍ أخرى - هي
التجربة الأولى لنا نحن الاثنين , اطمئن يا عمري ,
هذا القلق في عينيك يزيد تعبي , الروحان اللتان
تعيشان في داخلي من روحك .. بهما أعيش ..
عندما حلت منك بي , صرت أنا وهما روح واحدة
مددها بمنتهى الهدوء , ورفع رأسها فوق زنده
: نامي على الجنب الذي يريحك يا كل الدنيا
: مجرد أنت قربي .. انفاسك تملأ رئتي , أكون
بألف خير

اقتربت أيام ولادتها, وصارت سعيدة " الداية " شبه
مقيمة عندها, وسكينة استأذنت من أمها وأبيها
لتبقى في الليل مع الداية في بيت نرجس
فُبيل الغروب جاءت أولى موجات مغص الولادة ,

سكينة وخرنا وسعدية وقلق علوش اجتمعوا قرب
نرجس , أول ليلة لن تغفو نرجس فوق زنده , أول
ليلة سيكون هو في بيت وهي في بيت , انتصف
الليل وما زال يسمع صراخها المكبوت .. المخنوق ,
كانت تخرج بين الفينة والأخرى سكينة وخرنا , لم
يسألها .. بقي على صمته , قبيل الفجر .. اقتربت
منه خرنا

: أيها الأخ الذي لم تلده أمي .. حزنك يقتلني ..
خوفك يرعبني .. أيها القديس الطاهر .. ادع لها ..
إن شاء الله ستكون بخير وستفرح بها وبولديك ..
بقي صامتاً مطرقاً في الأرض

انتصف نهار اليوم الثاني , ونرجس ما زالت تتوجع
.. ولم تلد , انتصف الليل وجاء الفجر وانتصف

نهار اليوم الثالث ونرجس لم تلد .. خرجت خزنا

: نرجس تريدك

دخل .. تراجعت النسوة قليلاً

: تعال إليّ .. اشتقت إليك

تقدم منها وحملها بين ذراعيه وراح يقبلها ودموعه

تبلى وجهها

: اسمعني يا أميري وقرّة عيني ومليكي وقديسي ,

سأقص عليك حلاً رأيت في نفس الليلة التي

جاءتني فيها خزنا وحدثتني عنك , حين زرعتك في

روحي وغادرت .. تلك الليلة لم أنم , لم تدعني

أغفو .. لم تفارقني .. قبيل الفجر غفوت .. رأيت

نفسي أعبّر نهراً كنهر شاطئ الزهور , في منتصفه

جرفنتي المياه وأحسست أنني سأغرق , رأيت غيمة

بيضاء أغلقت النهر ولفنتني , خرجت منها حمامتان
ومسكت كل حمامة بذراع وطارتا بي , عندما نظرت
إلى الخلف , رأيت الغيمة تذوب رويداً رويداً في
الماء , يومها أيقظتني سكينه وأخبرتني أن على
المصطبة رجل بعمامة , خرجت فكان الشيخ حسن
, ورويت له الحلم .. يا قرّة عيني .. أنا ناديتك
لأودعك .. الآن الحلم يتفسر .. الحمامتان اللتان
في رحمي من لحظة لم يعودا يتحركان .. طارا ..
وسياخذانني معهما .. يا سيّدي وأمير روجي
وجسدي .. لا تحزن .. ما عشته معك يعادل مئة
جيل .. كل ليلة بتها في حضنك تعادل ألف عام ..
أيها الطاهر اسمح لي وسامحني وادع لي .. إن
كنت سأحزن .. سأحزن فقط لأنني لن أراك .. لن

أسمعك .. لن ألمسك ... شكراً لك .. كنت جنتي
التي وسعها السماوات والأرض
مدت يديها وغمرت وجهه , أجلسها على الفراش
وأسند ظهرها على الحائط ونظر إلى الداية
: ساعديها يا سعيّة .. هل فهمتني

: نعم يا سيّدي فهمت

خرج وترك معها سكينه وخزنا تبكيان بحرقة
وتبتهلان

: ساعديني يا ابنتي بالصبر والاتكال على الله
مدت يدها وبصعوبة أخرجت الولد الأول , لم
يصرخ , أخذته سكينه وخزنا ووضعتاه فوق شرففه
الأبيض التي كشكشته له أمه نرجس , ثم أدخلت
يدها مرة آخر وأخرجت الطفل الثاني , ووضعتاه

بجانب أخيه , لم تصرخ .. فقط كانت تعضّ على

شفتيها وتئن , مدت يدها مرة أخرى

: الحمد لله على سلامتكَ .. الله يعوضك بالأحسن

والأفضل يا ست نرجس

: دعيني أراهما

مالت برأسها صوبهما

: ما أجملكما .. سنترك أباكما وحيداً

خرجت خزنا وأخبرت علوش

: أخرجتهما سعدية .. إنهما طفلان كفلقة القمر

عليه العوض ومنه العوض

كان النزيف شديداً حاولت سعدية إيقافه لم تستطع ,

قُبيل الفجر طارت مع حمامتها , تاركة غيمتها

تذوب على مهل

قرب الشيخ منصور والشيخ حبيب حفروا لنجس
وحمامتيها , حمامة على يمينها وحمامة على
يسارها , شيعها الناس كباراً وصغاراً , بكوها بحرقة
.. موت نرجس كان مفاجئاً لهم , حملها علوش
مكفنة في حضنه وفي حضنها ولديه وخلفه سار
أهل الشاطئ والقرى المجاورة ليودعوا نرجس
بعد العشاء غادر اهل الشاطئ , بقي علوش وبقربه
اسماعيل

: ما رأيك أن نذهب قليلاً لبيبتكم اشتقت للأولاد

: سيسعدون برؤيتك

إليه هبوا مكسورين , أجلسهم قربه دقيقتين , قبلهم
واحداً واحداً , ولأول مرة اقترب من خزنا , مديده
نحوها

: تصبحين بألف خير يا أختاه

وغادر وخلفه اسماعيل , جلسا تحت شجرة التوت

حتى منتصف الليل

: يا أبا أحمد .. اذهب ونم , وغداً تأتيني

: لن أتركك وحدك .. إما تذهب معي , وإلا أبقى

هنا قريبك

: لا .. لن أذهب معك .. ولن تبقى .. لأن بقاءك

لن يفيدني بشيء , وذهابي معك لن يفيدك بشيء ,

اذهب وتأتيني في الصباح .. أرجوك اذهب , أريد

أن أكون وحيداً

: كما تريد .. تصبح على خير

عندما وصل اسماعيل سألته خزنا بجزن

: أين علوش .. لماذا تركته وحيداً ؟

: لم يقبل أن أبقى ولم يقبل أن يأتي , واحسست أنه
يريد أن ينفرد بنفسه

: يريد أن ينفرد بنفسه !! والله لن تراه بعد الآن في
كل عمرك .. يريد أن ينفرد بنفسه !! لقد خسرناه
إلى الأبد

: لا .. لن يغادر

: غداً نرى .. ألم تر .. جاء وودع الأولاد ؛ ولأول
مرة منذ جاء يودعني قبل أن يغادر .. يا اسماعيل
الأمر ليس بحاجة إلى تبصير وتخمين
صار يهلوس - ما تقوله خزنا ممكن جداً ولكن
إلى أين يذهب ويتركنا , لا أعتقد -

الباب , جال ببصره .. فراشهما .. وسائدها ..
شراشفها .. اقترب من منديلها المعلق أخذه ولفه
حول عنقه ولف رأسه بحطته ردّ الباب خلفه وغادر
حافياً , قرفص عند راس نرجس وولديه , وبكى ...
وقبل أن يستيقظ الناس غادر صوب البحر , عند
الشاطئ كان الصيادون يصطفون شبه متلاصقين
على طول الشاطئ , احتار كيف سيعبر ولا يرونه
!؟ انتقى فراغاً اعتقد أنه يستطيع المرور بدون أن
ينتبه إليه أحد , عندما صار بين صيادين وهمّ
بالمرور انتبها إليه الاثنان وصاحا بصوت واحد
: الله يصبك بالخير.. البقاء لله أخي علوش
رفع لهما يده وتابع
ساد الصمت والذهول .. وانعقدت الألسن .. في

البداية اعتقد الصيادون الذين تركوا قصبهم جانباً
ووقفوا ينظرون كيف سينتحرر .. كيف سيغرق ,
صرخ سليمان الذي مرّ علوش من جانبه , وهو ينزع
عنه ملابسه

: يا شباب .. يا شباب .. يجب أن نمنعه .. لا
يجوز حرام هيئوا أنفسكم .. انه رجل ضخم يجب
أن نكون جميعاً لنستطيع إنقاذه ,
بدأ الجميع ينزعون ملابسهم , وفجأة توقف الجميع ,
كلّ ينظر إلى الذي بجانبه , ثم نحو البحر .. أسئلة
بدون أسئلة , والجواب واحد , كان علوش قد صار
بعيداً , يمشي على الماء كمن يمشي في صحراء ,
أو فوق مرج , أو فوق بساط , نأى .. نأى .. حتى
صار ككرة , ثم تلاشى عن الأنظار .. بعد نصف

ساعة لم يبق على الشاطئ صياد واحد , كل عاد
إلى بيته وهو يحدث نفسه ومن حوله , يتشهد
ويحوقل